السَّكِينةُ في ضوءِ السُّنَّةِ النَّبويَّة - دراسةٌ موضوعيَّة

د. رأفت مَنسِي نَصَّار*

سلم البحث في ١٤٤٠/٧/١٢هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٠/٨/١٩هـ

ملخص البحث:

هذا البحثُ يتناولُ أمرًا قيِّمًا، وموضوعًا جَليلًا، لَه منزلةٌ عَظيمة، ومرتبةٌ جَليلة في دينِ اللهِ ﷻ؛ يتلخصُ في جَمعِ ودراسةِ الأحاديثِ المتعلقة بالسَّكِينة، والتي من خلالِها سَنتعرفُ على معَاني السَّكِينةِ ومَدلولاتها، ومُرَادفاتها، ومنزلتِها، وأنواعِها، وأسبابِها، وواجباتِها، ثمَّ أَختمُ البحثَ بخاتمةٍ تشتملُ على أهمِّ النتائجِ والتوصيات.

Summary of research

This research deals with something valuable, solemn subject, the status of his great, great and tidy in the religion of Allah .It is to collect and study the hadiths related to tranquility, and through which you will learn the meanings of tranquillity and their meanings, and synonyms, and its status, and the types, causes, and duties, has been sealed Find a conclusion include the most important findings and recommendations.

المقدمة:

الحمدُ للهِ وإنْ كانَ يقِلُّ معَ حقِّ جلالِه حمدُ الحامِدين، الحمدُ للهِ مُنزلِ السّكينةِ في قلوبِ المؤمنينَ لِيزدَادوا إيمانًا معَ إيمانِهم، وليربطَ بِها على قلوبِ المجاهِدين، مُنعِمًا متفضّلًا على عبادِه المتقينَ الموحِّدين، أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه إلَه الأوّلينَ والآخِرين، وأشهدُ أنَّ رسولَه وعبدَه محمّد سيّدُ العَالَمِين، وأُصلّي وأُسلّم عليه وعلى آلِه وصَحبه الغُرّ المُحجّلين، وأُثَنِّي بِمَن اقتفَى أثرَهم، واقتدى بِهُداهم، وتبعَ نَهجهم، وسلكَ مَسلكهم، واستنَّ بِسنَنهم إلى يومِ الدّين، رضيَ اللهُ عنهم وأرضَاهم، وألحقَنا بِهم في الصّالحينَ، غيرَ فَاتِنينَ ولا مفتُونين، آمينَ آمين، ثمَّ أمّا بَعد: فإنَّ نِعمَ اللهِ على عباده المؤمنينَ عظيمة، وعطَاياه جليلةٌ، وإنَّ مِن أعظَمِها وأجلِّها وأرقَاها سَكينةٌ وطمأنينةٌ وراحةٌ ويقينٌ يَهبه اللهُ وينزِله على قلوبِ عباده المؤمنين مؤازرةً ومواساةً وتَسلِيَة؛ فالسكينةُ أُنسُ الخَائِفين، وملاذُ المُخبِتين، ورجاءُ الدّاعينَ، ودعاءُ السَّائلين، ومناجاةُ الشاكرين، يُسلِّي بهَا ربّنا كلَّ مهمومٍ حَزين، ويُضيءُ بها طريقَ الحيارى والمُتعَبين، من أعطَاها فقَد هُديَ الاستقامة، ورُزِقَ السّعادة، ومُنح السّداد، وأُكرم الرَّشاد، ورأى بِنور اليقين، ورُزق محبةَ المُوحِّدين.

---

* الأستاذُ المشارِكُ في الحديثِ الشَّريفِ وعلومِه، قسمُ الحديثِ الشَّريفِ وعلومِه، كليةُ أصولِ الدِّينِ، الجَامعة الإسلاميَّةِ، غزَّة.

وإنَّ المؤمنَ الموقنَ لَيَعلمُ علمَ اليَقينِ أن لا راحةَ إلّا باللجوءِ إلى الله، ولا اطمئنانَ إلا بالركونِ إليه، والتوكلِ عليه، ولا سكينةَ إلا بِهُدَاه، وأنَّ من استعانَ بِه فقد أغنَاه وكفَاه وأعطَاه ووَقَاه وَأرقَاه وأرضَاه، وكفى بالله وليًّا، وكفى باللهِ حَسِيبًا، نَصِيرًا، عَليمًا، وكفى بِه شَهيدًا حَسيبًا مُعِينًا ناصرًا، وكفى باللهِ وكيلًا، وكَفَى بِه ملجأً وملاذًا وأمنًا. كفَى باللهِ مُنزلًا للسكينةِ في قلوبِ عباده، رابطًا على قلوبِهم وإن عظُمَ الخَطب، وإن اشتدَّ الكرب، وإن ادلهّم الأَمر، كفَى بِه ربًّا رحيمًا حليمًا. وكفى برسولِه وسنّته منهجًا قويمًا، وصراطًا مستقيمًا.

ثمَّ إنَّي قد خصصتُ بحثي المتواضعِ هذا للحديثِ عن موضوعِ السّكينةِ بنوعِ استفاضةٍ وتفصيل، فأسأله سبحانَه أن ينزلَ السكينةَ في قلبي وقلوبِ المؤمنين، وهو وحدَه سبحانه الهادي إلى سواءِ السّبيل، وهو حَسبي ونِعمَ الوَكيل.

أولًا: أهمية البحث وأسباب اختياره:

ويُمكنُني تلخيصُ أهميةِ هذا البحث بالنقاطِ الآتية:

١- أهميّة موضوعِ السَّكِينة، والحديثِ فيه، وعَظيمِ منزلتَها خصوصًا في يومِنا هذا مع ما يعصفُ بالمسلمينَ من خَطبٍ في كلِّ حَدبٍ وصَوب.

٢- التعرف على أنواعِ السَّكِينة ومنزِلتهَا وأسبَابِها ومواطِنها وثمرَاتِها.

٣- جمعُ الرواياتِ الحديثيّةِ التي تتناولُ موضوعَ السَّكينة ودراستها وشرحها.

٤- إثراء المكتبة الحديثية ببحثٍ موضوعيٍّ جديد، في إطارِ خدمةِ سنّةِ رسولنا ﷺ المستمرة إلى يومِ القيامة، بجهودِ المخلصينَ من المحدّثين.

ثانيًا: منهجُ البحثِ وطبيعة الدِّراسةِ فِيه:

ولقد سلكتُ في هذا البحثِ منهجَ الحديثِ المَوضوعِيّ المعروف عندَ أهلِ الاختصاص، أمَّا ما وردَ من جوانبَ تحليليّة واستنتاجيّة استِنباطيّة فَهو ممَّا اقتضتهُ طبيعةُ المَوضوع، ومسّت إليه الحاجةُ في البحث. وتمثّل منهجي في الدراسة بالنقاط التالية:

١. منهجي في الترجمة للرواة:

– لم أقمْ بالترجمةِ للرواة، ولا للأعلام اختصارًا، لكنّي أذكرُ علّةَ الرّاوي إن وجدتْ.

٢. منهجي في التخريج:

– إذَا وجدَ الحديثُ في الصّحِيحين، أو أحدِهما، اكتفيتُ بتخريجه منهما إذ فيهما غنىً وكِفاية إن شاءَ الله.

– أمّا إذا كانَ الحديثُ في غيرِ الصَّحيحين، اكتفيتُ بِمصدرٍ واحدٍ على أن يكونَ حكمُ

الحديث صحيحًا أو حسنًا.

– أذكر علّة الحديثَ إن وجدَت، وأقوالَ العلماءِ في حلّها.

– قدْ أختصرُ الحديثَ أحيانًا مخافةَ التطويل.

٣. منهجي في بيانِ درجةِ الحدِيث:

– إذا كانَ الحديثُ في الصَّحيحينِ أو أحدهما فذلكَ مشعِرٌ بِصّحته، مُغنٍ عن عناءِ الحكمِ عليه؛ وذلكَ للإجماعِ علَى تلقِّي كتَابيهما بالقَبول، ومثله مَا كانَ في صحيحِ البخارِيّ معلّقًا بِصيغة الجَزم، وأمَّا إذَا كانَ في غيرِ الصَّحيحين، فأحكمُ على الإسناد، أو أذكرُ حكمَ صاحبِ الكتابِ إنْ وجد، أو محقّقه.

ثالثًا: خطةُ البَحث:

يتكونُ البحثُ من مقدمةٍ وتمهيدٍ وأربعةِ مباحثَ وخاتِمة، جعلتُهم على النَّحو التَّالي:

المقدمة: وتتضمنُ أهميةَ البحثِ وأسبابَ اختياره، ومنهجَ الدّراسة، وخطةَ البحث.

التمهيد: معنى السكينة، ومنزلتها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السَّكِينة لغةً واصطلاحًا.

المطلب الثاني: منزلة السِّكِينة.

المبحث الأول: أنواع السَّكِينةِ وسَببُ حصولِها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أنواع السَّكِينة.

المطلب الثاني: سبب حصولِ السَّكِينة.

المبحث الثاني: مواطنُ تنزّل السَّكِينة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: عندَ التماسُ العلم.

المطلب الثاني: عندَ قراءةُ القرآن.

المطلب الثالث: التواضع.

المبحث الثالث: عِباداتٌ سَببٌ في تنزّلِ السَّكينة، وفيه أربعةُ مطَالب:

المطلب الأول: إقَامةُ الصَّلاة.

المطلب الثاني: أداءُ الحجّ.

المطلب الثالث: الجهادُ في سبيلِ الله.

المطلب الرابع: اتباعُ الجنَائِز.

المبحث الرابع: ثمرات السكينة، وفيه:

المطلب الأوّل: هي رحمة من الله ﷻ؛ لِعبَاده المُؤمنين.

المطلب الثاني: تثبيت لعباد الله المجاهدين.

المطلب الثالث: زيادة للإيمان ورفعة للدرجات.

المطلب رابع: آياتها سبب في كشف الكرب، وإزالة الهمِّ.

الخاتمة: وتتضمن أهمَّ نتائجِ البحثِ وَالتوصِيات.

تمهيد: معنى السكينة ومنزلتها.

المطلب الأول: السَّكينة لغةً واصطلاحًا:

أولًا: السَّكينةُ لغةً:

والسَّكينة من مادة "سَكَنَ"، وهي: الوَدَاعة والوَقار والأَمن، ومن ذلكَ قوله ﷺ ".. يَا مِسْكِينة عَلَيْكِ السَّكِينةَ..."(١). ويقال: رَجُلٌ وَدِيعٌ وقُورٌ سَاكِنٌ هَادِئٌ(٢)، وَتَقُولُ للوَقُور: عَلَيهِ السُّكون والسَّكِينة، وأَنشد ابْنُ بَرِّيٍّ لأَبي عُرَيْف الكُلَيبِي:

للهِ قَبْرٌ غالَها، ماذا يُجِنْنَ ... لَقَدْ أَجَنَّ سَكِينةً ووَقَارا

أما قوله ﷻ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ﴾(٣)، فقيلَ الرحمَة، وقيلَ النَّصر، وقيل الطّمأنِينة، وقيل الوَقار. والسّكينةُ أيضًا: التَّواضع، كمَا قالَ ﷺ: ".. والسّكينةُ في أهلِ الغَنَم"(٤)، يعني تواضعًا وطمأنينةً ووقَارًا. وقيلَ في معنى السَّكينةِ أشياء أخرى(٥). قلتُ: وكلُّ المَعاني السابقةِ تدخلُ في معنى السَّكينةِ المُراد في بَحثِنا.

مرادفاتُ كلمةِ السَّكِينة:

ومِن مرادفاتِ كلمةِ السَّكينة: "الهَوْن"؛ كمَا وصفَ اللهُ عبَادَه فقال: ﴿.. يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا..﴾(٦)، ومِن مرادِفاتِها أيضًا: "المَهْل أو المَهَل أو المُهْلة"، كمَا قالَ الشاعر:

فَيَا ابنَ آدَمَ، مَا أَعْدَدْتَ فِي مَهَلٍ ..... لِلَّهِ دَرُّكَ مَا تأْتي وَمَا تَذَرُ(٧)

ثانيا: السَّكِينةُ اصطلاحًا:

وقد عرَّفَ الجرْجَانِيُّ السَّكينةَ فقال: "مَا يَجده القَلبُ من الطّمَأنينةِ عندَ تنزّل الغَيب، وهي نورٌ في القَلب يَسكن إلى شاهدِه ويطمئنُ، وهو مبَادِي عينِ اليَقين"(٨).

المطلب الثاني: منزلةُ السَّكِينَة

والسَّكينةُ مِنحَةٌ ربانيَّة، وعطيَّةٌ إلهيَّةٌ سَنيَّة، ومنزلةٌ رفيعةٌ عليَّة، لا يُؤتَاها إلا ذُو حظٍّ عَظِيم، يمنَحها اللهُ لِمَن عَمُر قلبُه به، واشتاقتْ روحُه إليه، ولقد عدَّها العلماءُ من المنازلِ العَاليةِ في دينِ اللهِ ﷻ؛ ولهَا فضلٌ عظيم، ومقامٌ رَفيع عندَ اللهِ ﷻ، وقد رُوي عن عَبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ أنَّه قَالَ: "النَّاسُ غَادِيَانِ: بَايِعٌ نَفسَهُ فَمُوبِقُهَا،

وَمُفَادِيهَا فَمُعْتِقُهَا، الصَّدَقَةُ بُرهَانٌ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالسَّكِينَةُ مَغْنَمٌ وَتَرْكُهَا مَغْرَمٌ"(٩)، فَهي من أعظمِ المَغَانِم، وأعلى الدَّرَجات. وجاءَ فِي صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الكتبِ المتقدِّمَة؛ "إِنِّي بَاعِثٌ نَبِيًّا أُمِّيًا، لَيسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، ولَا صَخَّابٍ فِي الأَسوَاقِ، ولَا مُتَزَيِّنٍ بِالفُحْشِ، ولَا قَوَّالٍ لِلخَنَا. أُسَدِّدُهُ لِكلِّ جَمِيل. وأَهَبُ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ. ثُمَّ أَجعَلُ السَّكِينَةَ لِباسَهُ، والبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقوَى ضَمِيرَهُ. وَالحِكمَةَ مَعقُولَه، والصِّدقَ والوفَاءَ طَبِيعَتَه، والعَفوَ والمَعرُوفَ خُلُقَهُ، والعَدلَ سِيرَتَهُ. وَالحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالهُدَى إِمَامهُ، وَالإِسلامَ مِلَّتَهُ، وأَحمَدَ اسْمَه"(١٠).

وأهلُ السَّكينةِ على صبرِهم يُثَابُون، وفي مقامِهم يُمدَحون، وعلى غيرِهم يتقدّمون؛ كَمَا جاءَ عن مُعاذ بن جبَلٍ ﷺ: "أَنَّه كانَ على أَرزَاقِ أَهلِ الشَّامِ، فجَاءَ رجُلٌ فقَالَ: أَعْطِنِي، فإِنِّي رَجُلٌ مِن أَهلِ البَادِيةِ، فقالَ مُعَاذ: "بِكَ أَبدَأُ أَمْ بِأَهلِ الفُسطَاطِ؟ عليهِم السَّكِينَةُ، ويأْتِيهم الخَيرُ، وبِهِم يُبدَأُ يَومَ القِيامةِ"(١١). وهذا دليلٌ بيِّنٌ على أنَّهم من أفضلِ النّاس وخواصّهم وبِهم يُبدأ.!

ولقد عدَّ الإمامُ ابنُ القيِّم السَّكينةَ من منازلِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾؛ فَقالَ عنهَا: "مَنزلةٌ مِن مَنازلِ الموَاهبِ، لا مِنْ منازلِ المكاسِبِ"(١٢)؛ فَهي لا تُكتَسبُ اكتسابًا؛ بل يمنحُها اللهُ مَنْ شاءَ من عبادِه"؛ ولكنَّه ﷻ جعلَ السكينةَ في منزلةٍ، والطّمأنينة في منزلةٍ أخرَى، أو بِمَعنى آخر جعلَ الطمأنينةَ ختامَ السَّكينة، وقالَ نقلًا عن أبِي ذَرّ الهَرَوِيّ –صاحِب المَنَازل–: "الطُّمأنِينَةُ: سُكونٌ يُقَوِّيهِ أَمنٌ صحيحٌ، شبِيهٌ بِالعِيَانِ. وَبَينهَا وبَينَ السَّكِينةِ فَرقَانِ؛ أَحدُهمَا: أَنَّ السَّكِينَةَ صَولَةٌ تُورِثُ خُمُودَ الهَيْبَةِ أَحْيَانًا، وَالطُّمَأْنِينَةُ سُكونُ أَمنٍ فِي استِرَاحَةِ أُنْسٍ. والثاني: أَنَّ السَّكِينَةَ تَكونُ نَعْتًا، وَتَكونُ حِينًا بَعدَ حِينٍ، والطُّمَأنِينَةُ لَا تُفارقُ صَاحِبها. الطُّمأنِينةُ موجِبُ السَّكِينةِ، وَأَثَرٌ مِن آثَارِهَا؛ وكَأَنَّها نِهَايةُ السَّكِينَةِ"(١٣)، فقولهُ: سُكُونٌ يُقَوِّيهِ أَمنٌ أَي سُكونُ القَلْبِ معَ قوَّةِ الأَمنِ الصحِيحِ الَّذي لا يَكُونُ أَمنَ غُرُورٍ؛ فَإِنَّ القَلبَ قَد يَسكنُ إِلى أَمنِ الغُرُور، وَلكِنْ لا يَطمَئِنُّ بِه لِمُفارَقةِ ذَلكَ السُّكونِ لَه، وَالطُّمأنِينَةُ لَا تُفَارِقُه، فَإِنَّها مَأخُوذَةٌ من الإِقَامةِ، يُقال: اطمَأَنَّ بِالمكانِ وَالمَنزِلِ: إِذا أَقامَ بِه. وسَبَبُ صحَّةِ هذا الأَمنِ المقَوِّي للسّكُونِ: شِبهُهُ بالعِيانِ. بِحيثُ لَا يَبْقَى معهُ شَيءٌ مِنْ مُجوِّزَاتِ الظُّنونِ والأَوهامِ؛ بَل كأَنَّ صَاحِبهُ يُعَاينُ ما يَطمَئِنُّ بِه؛ فَيأمَنُ بِه اضطِرَابَ قَلبِهِ وقَلَقهُ وارتِيابَهُ. وأَمَّا الفَرْقَانِ اللَّذانِ ذَكرَهُمَا بَينهَا وبينَ السَّكِينةِ؛ فحاصِلُ الفَرقِ الأَوَّلِ: أَنَّ السَّكِينَةَ تَصُولُ على الهَيبَةِ الحَاصِلةِ فِي القَلبِ؛ فَتُخْمِدُها فِي بَعضِ الأَحيَانِ، فَيَسكنُ القَلبُ مِن انزِعاجِ

الهَيبَةِ بَعضَ السُّكونِ؛ وذلِكَ في بَعضِ الأَوقاتِ، فلَيسَ حُكمًا دَائِمًا مُستَمِرًّا. وهذا يكونُ لِأَهلِ الطُّمَأْنِينَةِ دَائِمًا، وَيَصحَبُهُ الأَمْنُ وَالرَّاحَةُ بِوُجُودِ الأُنْسِ؛ فَإِنَّ الاِستِرَاحَةَ فِي السَّكِينَةِ قَد تَكُونُ مِنَ الخوفِ وَالهَيبَةِ فَقَط، وَالاِسْتِرَاحَةُ فِي مَنْزِلَةِ الطُّمَأْنِينَةِ تَكُونُ مَعَ زِيَادَةِ أُنْسٍ؛ وَذَلِكَ فَوْقَ مُجَرَّدِ الْأَمْنِ، وَقَدْرٌ زَائِدٌ عَلَيْهِ. وَحَاصِلُ الفَرْقِ الثَّانِي: أَنَّ الطُّمَأنِينَةَ مَلَكَةٌ، ومَقَامٌ لَا يُفَارَقُ. وَالسَّكِينَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى سَكِينَةٍ هِيَ مَقامٌ وَنَعتٌ لَا يزولُ وإِلى سكِينَةٍ تكونُ وَقتًا دُونَ وَقتٍ"[١٤]. وزادَ ابنُ القيِّم: "وَكُلٌّ منهُمَا يَستَلزِمُ الآخرَ وَيُقَارِنُه. فَالطُّمَأْنِينَةُ تَسْتَلْزِمُ السَّكِينَةَ وَلَا تُفَارِقُهَا، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ؛ لَكِنَّ اسْتِلْزَامَ الطُّمَأْنِينَةِ لِلسَّكِينَةِ أَقْوَى مِن استِلْزَامِ السَّكِينَةِ لِلطُّمَأنِينَةِ". وقالَ أيضًا: " وَأَمَّا السَّكِينَةُ: فَإِنَّهَا ثَبَاتُ الْقَلْبِ عِنْدَ هُجُومِ الْمَخَاوِفِ عَلَيْهِ، وَسُكُونُهُ وَزَوَالُ قَلَقِهِ وَاضْطِرَابِهِ، كَمَا يَحْصُلُ لِحِزْبِ اللَّهِ عِنْدَ مُقَابَلَةِ العَدُوِّ وَصَولتِه"[١٥].

المبحث الأول
أنواعُ السَّكِينَةِ وأسبابُها
المطلب الأول: أنواعُ السَّكِينَة

ويمكننا القولُ إنَّ السّكينةَ تنقسمُ بحسبِ الأصنافِ التي يهبها اللهُ إيّاها إلى قسمين:

أولًا: السَّكِينةُ العَامَّة:

وهِي تلكَ السَّكينَة التي أنزلَها اللهُ ﷻ في قلوبِ الأَنبياءِ والمُرسَلين، وهي أعَلى المَراتب، وأرفعِ المَنازل، وأقصَى درجاتِ اليقينِ بالله ﷻ؛ يُنزلها ربّنا –سبحانه– في قلوبِ أنبيائِه في أحلَكِ المواقفِ، وأشدِّ الكُرب، كأنّه يخبرهم أنّي مَعَكم، أُثبّتكم، أؤيّدكم، أجعلكم على عيني، وفي رعايتي وحمايتي، وأُبطلُ لأجلكم كلَّ الأسبابِ الدّنيويّة، فنارٌ مضرمةٌ يجعلها ربّنا بردًا وسلامًا على نبيّه إبراهيمَ الخَلِيل وقد ألقيَ فِيمَا أضرمَ له أعداءُ اللهِ من النّار، فَثبّتَ اللهُ فؤاده وربطَ على قلبه وأيَّدَ جَنَانه، فَلَمْ يَخف ولمْ يجزَع ولمْ يصرخ ولا اشتكى، بل رفعَ أمره وحاجته إلى اللهِ وحدَه، وأنزلها بِه –سبحَانه–، فَكفاه وحَماه رغمَ كيدِ الكافرينَ.!

وحدِّث عن السَّكينة التي حصَلتْ لِموسى وقد حاصرَه فرعونُ وجنوده منْ ورائِهم والبحرُ من أمَامهم، يشقُّ موسى البحرَ بِعَصَاه بإرادةِ ربِّه وبقدرَته وعَونه، غيرَ خائفٍ ولا أَبِهٍ ولا جَزِع، ويَستَغِيث بَنو إسرائيل؛ "يا مُوسى إِلَى أينَ تذهبُ بِنا، هذا البحرُ أمَامنا وهذا فرعونُ خلفَنا"، فَيجيبهم جوابَ الواثقِ بربّه، الموقنِ بِه، الرّاضي

بقدَره، السّاكنِ له، أنْ كَلا إنَّ معيَ ربّي سَيهْدِين، وسَيُنجِين، وسيُمكِّنُ لي، وقدْ كان. ومثلها السَّكينةُ التي حصلتْ لَه وقتَ تكليمِ اللهِ لَه تكليمًا حقيقةً، ولقد أنزلَ اللهُ سَكِينَته عَليه حينَ تحوّلتْ عَصَاه ثعبانًا مُبينًا أوّلَ مرّة، وكذلكَ حينَ رَأى حبالَ القَومِ وعصيّهم كأنَّها تَسعى فَأوجسَ في نفسِه خِيفة، فثبّته ربّه أمرًا إيّاه أن يأخذَها دونَما خَوفٍ أو وَجل.

أمّا المواطنُ والمناسباتُ التي ألقَى اللهُ فيهَا السّكينةَ علَى قَلبِ نبيّنا ﷺ فأكثر مِن أنْ تُعدّ وتُحصَر، فَخُذْ مثلًا حينَ أقبلَ سُراقةُ بِخَيله عليه وعلى صاحبِه وهمَا في الغار؛ ولو أنَّ أحدَهم نظرَ أسفلَ قدمِه لَرَآهمَا، ولكنَّ اللهَ سلّمهما وعَصمَهما وربطَ على قلبيهما حتى بعدَ أنْ رَآهمَا سُرَاقة، وحدِّث وأكثِر عن السَّكِينة التي نزلتْ عَليه في مواقفَ عَظيمة، ومناسباتٍ عَصيبَة، وأعداءُ اللهِ قد أحاطوا بِه؛ كيومِ بدرٍ ويوم أُحدٍ ويومَ حُنَين ويومَ الخَندق وغيره، يتقابلُ الصّفان ويَقتَتِلان، وأعدادُ الكفرةِ أضعافًا مُضاعَفة، وعدَّتهم وعتَادهم أقوى وأكبرُ وأكثر، لكنْ مع ذلكَ فالغَلبةُ لأهلِ الله وخاصّته، أهلِ السّكينةِ والطمأنِينةِ واليَقين بِه.

"فَهَذه السَّكِينةُ أمرٌ فوقَ عقولِ البَشر وهي مِن أعظمِ معجِزَاته عندَ أربَابِ البَصائِر؛ فإنَّ الكذَّابَ –ولا سيَّمَا علَى الله– أملَق مَا يكونُ وأَخوف مَا يكونُ وأشدّ اضطرابًا في مثلِ هذه المَواطن فَلو لمْ يكُن للرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عَليهم من الآياتِ إلَّا هَذه وحدَها لَكَفَتْهُم"(١٦).

ثانيًا: السَّكِينَةُ الخَاصَّة:

وهي السَّكِينَةُ التي تكونُ لأتباعِ الأنبياءِ والرُّسل، بِحسب متابعتِهم لَهم، واتّباعِهم لمَا جاءتهم به رسلُهم منْ عندِ الله، وهي سَكِينةُ الإيمانِ التي تُسكنُ قلوبَ المؤمِنين الموحدِين عندَما يحيق بهم خطبٌ وكَرب، ولهَذا أنزلَها اللهُ على المؤمنينَ في أصعبِ المواطنِ التي كَانوا أحوجَ إليها، وهي سكينةٌ عندَ القلقِ والاضطرابِ والخوفِ والوَجل الّذي لمْ يَصبرْ علَيه عمرُ بن الخطابِ ﷺ –مثلًا– وذلكَ يومَ الحُدَيبية، كما ذُكِر آنفًا، ثمَّ قالَ اللهُ ﷻ بعدَ ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(١٧)، فَحينَ جعلَ الذينَ كَفروا في قلوبِهم الحميّةَ حميّةَ الجَاهليّة؛ جعلَ اللهُ بالمقابلِ في قلوبِ أوليائِه سكينةً وطمأنينةَ ويقينًا تقابلها، وفي أَلسنتهم كلمةَ التقوى مقابلةً لمَا تُوجِبه حميّة الجاهليّة من كلمةِ الفُجور؛

فكانَ حظّ المؤمنينَ السّكينة في قلوبِهم، وكلمةَ التقوَى على ألسِنتهم، وحظّ أعدائِهم حميّة الجاهليّة في قلوبهِم، وكلمةَ الفُجور والعدوانِ على ألسنتهم؛ فكانتْ هذه السكينةُ وهذه الكلمة جندًا منْ جُندِ اللهِ أيَّد بها اللهُ رسولَه والمؤمنينَ في مقابلةِ جُندِ الشيطانِ، وثمرةُ ونتيجةُ هذه السَّكِينة الطّمأنينةُ للخيرِ تصديقًا ويقينًا، ولأمرِ اللهِ تسليمًا وإذعانًا وخُضوعًا؛ فلا تَدع شبهة تعارضُ الخَير، ولا إرادة تعارضُ الأمر؛ فَلا تمرّ معارضاتُ السوءِ بالقلبِ إلّا وهيَ مجتازَة من مرورِ الوَساوس الشيطانيّة الّتي يُبتَلى بها العَبدُ لِيقوى إيمَانُه، ويَعلو عندَ اللهِ ميزانُه بِمدافعتِها، وردّها وعدم السّكونِ إليها فلا يظنّ المؤمنُ أنّها لِنقصِ درجتِه عندَ الله[١٨] .

المطلب الثاني: سببُ حصولِ السَّكِينَة

إنَّ من نافلةِ القولِ بأنَّ السَّكينة منحةٌ منَ اللهِ لِعبادِه المُتقين، وسمَةً للقومِ الصَّالحين، وهديةٌ من اللهِ لحزبِه المُفلِحين، وأمّا سَبَبها فهو عظيمٌ عَظيم، عَليه مَدارُ الدِّين، وهو أصلُ الشّرِيعَة، ألا وهو: معرفةُ اللهِ ومراقبتُه؛ وهذه أصلُ الإيمَان، وجزاءُ الإحسان، ومنحةُ الحنَّان المنّانِ -سبحَانه-، ففِي حديثِ جبريلَ عندَما سألَ النبيَّ ﷺ عن الإحسانِ قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"[١٩]، وأنْ تشعرَ بأنَّ اللهَ راقبكَ ناظركَ شاهدكَ مطَّلعٌ عليكَ في كلِّ حركةٍ وسَكَنةٍ وكلمةٍ، وهَذا الأمرُ يتأَتّى ويتحصّل مِن خِلاله السَّكينة، وَيعظم الوَقار، فَكلّما اشتدّت هذه المراقبة وعَظُمت أوجبتْ لصاحِبها من الحَياءِ والسَّكينةِ والمَحبّة والخُضوعِ والخُشوعِ والخَوف والرّجاء مَا لا يَحصل له بدونها؛ فَالمراقبةُ أساسُ الأَعمالِ القَلبيّة كلّها وعمودُها الذي قيامهَا بِه. وإنَّ العبدَ محتاجٌ الى السّكينةِ عندَ الوَساوِس المعترضةِ فِي أصلِ الإيمان لِيثبت قلبُه ولا يَزيغ، وعندَ الوَساوس والخَطرات القادِحة في أعمالِ الإيمانِ لِئلّا تَقوى وتَصير همومًا وغمومًا وإرادات يَنقصُ بها إيمانه، وعندَ أسبابِ المَخاوف على اختلافِها لِيثبتَ قلبُه ويَسكن جَأشُه، وعندَ أسبابِ الفَرح لِئلّا يَطمح بِه مركبُه فَيجاوز الحدَّ الذي لا يعبَر؛ فينقَلب ترحًا وحزنًا؛ وكَم مِمّن أنعمَ اللهُ علَيه بمَا يُفرحه فَجمح بِه مركبُ الفَرح وتجاوزَ الحدّ فانقلبَ ترحًا عاجلًا، ولو أُعينَ بِسكينةٍ تعدل فرحَه لأريدَ بِه الخَير. وعندَ هجومِ الأسبابِ المؤلمةِ على اختلافهَا الظاهرةِ والبَاطنة؛ فمَا أحوَجه إلى السّكينة حِينئذٍ وما أنفعهَا لَه وأجدَاها علَيه وأحسن عاقِبتها، والسَّكينة في هذه المواطنِ علامةٌ على الظّفر وحصولِ المَحبوب واندفاعِ المَكروه، وفَقدها علامةٌ على ضدِّ ذلكَ لا يخطِئ هذا ولا هذا"[٢٠].

ولقد قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٢١]، فَمراقبة اللهِ ﷻ هي دوامُ عِلمِ العَبدِ، وتَيَقُّنِه باطِّلاعِ الحقِّ سبحانهُ وتعالى على ظاهرِهِ وباطنِهِ؛ فاستدَامتُهُ لِهذا العِلمِ واليقِينِ هي المرَاقبَةُ، وهيَ ثمرَةُ علمِهِ بأَنَّ اللَّهَ سبحانهُ رقيبٌ عليهِ، ناظِرٌ إليهِ، سامِعٌ لِقولهِ. وهوَ مطَّلِعٌ على عملهِ كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ، وكلَّ نَفَسٍ وكلَّ طرفَةِ عينٍ. والغافِلُ عن هذَا بِمعزلٍ عن حالِ أَهلِ البدايات. فكيفَ بِحالِ المرِيدِينَ؟، فكيفَ بحالِ العارِفِينَ؟. وقد قِيلَ: مَن راقَبَ اللَّهَ فِي خواطِرِهِ، عَصمَهُ في حركَاتِ جوارِحِهِ"[٢٢]. "وأَربابُ الطَّريقِ مجْمِعونَ علَى أنَّ مرَاقَبةَ اللَّهِ تعالَى فِي الخوَاطِرِ ؛ سبَبٌ لحِفظِهَا في حرَكاتِ الظَّواهرِ. فمنْ راقَبَ اللَّهَ في سرِّهِ، حفِظَهُ اللَّهُ فِي حركَاتِهِ فِي سرِّهِ وعلانِيتِهِ"[٢٣].

ثمَّ إنَّ معرفةَ اللهِ ﷻ ومراقَبته تحتاجُ إلى عِلمٍ وفَهْمٍ وبَصيرة؛ حَتى لا يُعبد اللهُ علَى جَهل؛ فَهِي أصلُ الأُصول، وبهَا شَرفُ الوصول إلَى حَوضِ الرَّسول، وهِي تُدلّلُ عَلى كَمالِ اللهِ المُطلق، وإجلالِه المُفرد، فَهي أشرفُ المَطالب، وأوّلُ المَواهب، وهي دليلٌ علَى مَحبةِ اللهِ وتَوقيره، وخوفِه ورجَائه، وداعية إلَى الإخلاصِ لَه، وَلَعمري مَا خُلق الخَلقُ إلّا لِيعبدوا اللهَ ويعرِفوه، وهذه هي الغايةُ المطلوبة، والبُغية المَنشودة، وكلّما زادتْ معرفةُ العَبد بِإلهه ازدادَ إيمانُه، وعَظُم يقينُه، وكبرَ تأييدُ اللهِ له، يصنعهم على عَينه، ويجعلهم في كَنَفِه ورعايته، يُغيثهم متى استَغَاثوه، يُجيبُهم إذا طَلبوه، وأَنعِم وأكرِم بهذه الكراماتِ من مَنزِلة.

المبحث الثاني
مواطن تنزل السكينة

والسَّكينةُ بابٌ عَظيمٌ لِثبوتِ الخُشوع، وأصلٌ رَفيعٌ لِحصولِ الخُضوع، ودليلٌ لِتعظيمِ المرَاقبة، وهي علامةُ محبّةِ اللهِ عبدَه، فإذا أحبَّه كانَ سمعه الذي يسمعُ بِه، وبَصره الذي يبصرُ به، ويده التي يبطشُ بِها، ورجله التي يَمشي بها، ولئنْ سألَه ليُعطِينّه، ولئنْ استعاذَه لُيعيذَنّه؛ ومِن خلالِ تتبّعي لنصوصِ السّنةِ الكريمةِ يمكنني بيانُ بَعضِ المَواطنِ التي تتنزّلُ فيها السّكينةُ على قلوبِ المؤمنين في المطالبِ التالية:

المطلب الأول: عند التماس العلم

والعلماءُ ورَثةُ الأنبياء، وإنّهم ما ورّثوا دِرهمًا ولا دينارًا، إنّما ورّثوا العِلم، فَمَن أَخَذه فقد أخذَ بحظٍّ وافِر، فَالعِلْم أهمُّ المَنَافع، وأعلى المَقَاصد، وعَليه مدارُ الدِّين، وبه اقتفاءُ الصِراطِ المُستقيم، وهو موطنٌ عظيمٌ لِحصولِ السّكينة للمؤمنين. وإنَّ جزاءَ

الكَرامة، وحضورَ الملائكة، ودخولَ الجنَّة، ثمرةٌ عندَ التماسِ العِلم، وعمقِ الفَهم، وتحقّقُ البَصيرة، وَلا يكونُ ذلكَ إلّا لِعالِمٍ عَامِل، أدَّى حقَّ اللهِ وحقَّ العِبَاد، فيكونُ سببًا عظيمًا له في تحقيقِ السَّكينة، وحصولِ الوَقار؛ وقدْ وردَ أنَّ رَجلًا قال للشَّعْبِيِّ: "إنَّ فُلانًا عالمٌ، قالَ: "ما رأَيتُ عليهِ بهَاءَ العِلمِ". قيلَ: وما بهَاؤُهُ؟، قالَ: "السَّكينةُ، إذا علَّمَ لا يُعَنِّف، وإذا علِمَ لا يأْنَفُ"(٢٤)، وهذا الذي وصفَ الشّعبيُّ هو عينُه مَا وجدنَاه جليًّا فِي صحابةِ سيدِنا رسولِ اللهِ ﷺ عامّة، غيرَ أنَّ بعضَهم قد فُضّل على غيرِه منحةً من الله؛ كَعمرَ الفَاروق ﷺ؛ فقدْ وردَ عن عليّ ﷺ أنَّه قَال: "ما كُنَّا نَشُكُّ إلا أنَّ السَّكينَةَ تَنطِقُ على لسَانِ عمرَ"(٢٥)، وهذا محضُ مثالٍ على ما حازَه الفَاروقُ مِن المَكارم، وما نالَه من العَظائِم، فَهو الفاروق والصِّديق، والمحدِّث المُلهَم، وهو الّذي قال: "تعلَّمُوا العِلمَ وتعَلَّمُوا لِلعِلمِ السكينَةَ والحِلمَ، وتَواضعُوا لِمنْ تَعَلَّمُونَ مِنهم، ولِيَتَوَاضَع لكم مَنْ تُعَلِّمُون، ولا تَكونُوا مِن جبابِرَة العُلماءِ؛ فَلا يَقومُ عِلمُكمْ بِجهلِكُم"(٢٦)؛ فَلا يَكونُ العَالِم عالمًا إلّا إذَا التزمَ سمتَ العلماءَ، فَغشيَته السَّكينة، ولبسَ لباسَ الحِلم، واختارَ أحسنَ القَول، وعمِلَ بِمقتضى العِلم، وجعلَ باطنَه أصلحَ من ظاهِره. أمَّا إذَا كانَ قليلَ البِضاعةِ غيرَ مُضْطَلِعٍ بِه أحجَمَ عَن الحقِّ في موضعٍ يَنبغِي فِيه الإقدامُ لِقلةِ علمِه بمواضعِ الإقدام والإحجَام فَهو يُقدم في غَيرِ مَوضعِه ويُحجمُ في غيرِ مَوضعِه، ولا بصيرةَ لَه بالحقِّ ولا قوةَ لَه عَلى تَنفيذِه، فَهو محتاجٌ إلى قوةٍ في العِلم وقوةٍ في التَّنفيذ فإنَّه لا يَنفع تَكلّم بحقٍّ لا نفاذَ لَه"(٢٧). وإذا تحقَّقت هذه المَعاني ورَسخت هذه المفَاهيم في قلوبِ أهلِ العِلم ذَاقوا لذّته، وعاشوا نعيمَه، وعظُمت في قلوبِهم حلاوَته، وما أجَمل مَا قالَ في مَعنى ذلكَ الإمامُ الشَّافعِيّ ﷺ:

سَهَري لِتنقيحِ العـــلومِ ألذُّ لِي ... مِن وَصلِ غَانيةٍ وَطيبِ عِنَــاقِ
وَصَريرُ أقلامِي على صفَحاتِها ... أحَلى من الدّوْكَـــــاء والعشـــاقِ
وألذّ مِن نَقرِ الفَتـــاةِ لِدّفهَـــا ... نَقــرِي لِألقِي الرَّمـــل عن أورَاقي
وَتَمايلي طربًا لِحــلِّ عَويصَـــةٍ ... في الدَّرسِ أشهَى مِن مدَامةِ سَــاقِ
وأبيتُ سهــرانَ الدّجَى وَتبيتـــه ... ضنومــًا وَتبغِي بعدَ ذاكَ لحَــاقِي(٢٨)

ولقدْ رفعَ اللهُ ﷻ العلماءَ وعظّم قدْرَهم وخلّدَ في كتابِه الكريمِ ذكرَهم، فقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢٩)، وإنَّ الإيمَانَ الّذي يَدفعُ إلَى فسْحة الصَّدرِ وطَاعةِ الأَمر، والعِلم الّذي يُهذِّبُ القَلبَ فَيتسع ويُطيع؛ يُؤدّيان إلى الرّفعةِ عندَ الله دَرجات. وفِي هَذا مقَابل لِرفعةِ المَكان الّذي

تَطوّعوا بِتركِه ورفعُوا عنْه لاعتبارٍ رَآه الرّسولُ ﷺ"[٣٠]. وقد وردَ في الحديثِ أنَّ رجلًا قدمَ منَ المَدِينةِ إلى أبِي الدَّرداءِ، وهوَ بِدِمشقَ، فقَالَ: "ما أَقْدَمَكَ، أَي أَخِي؟، قالَ: حَديثٌ بلغنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَن رسُولِ اللهِ ﷺ؟، قالَ: أَمَا قَدِمتَ لتِجارَةٍ؟ قالَ: لَا. قالَ: أَمَا قَدمْتَ لِحَاجةٍ؟، قَالَ: لَا. قَالَ: مَا قدِمْتَ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فإِنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: "منْ سلَكَ طرِيقًا يطلبُ فيهِ عِلمًا سلَكَ اللهُ بِهِ طرِيقًا إِلى الجنَّةِ، وإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضعُ أَجنِحتَهَا رِضًا لطَالبِ العِلمِ، وإِنَّهُ لَيستَغْفِرُ لِلعالِمِ مَنْ في السَّماواتِ والأَرضِ، حتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وفضلُ العالِمِ على العابِدِ كفضْلِ القمَرِ علَى سائرِ الكواكِبِ، إِنَّ العلماءَ هُم ورثَةُ الأَنبِياءِ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولَا درْهمًا، وإِنَّمَا وَرثُوا العِلمَ، فَمَنْ أَخذَ بِهِ، أَخذَ بِحَظٍّ وافِرٍ"[٣١]. وأي واللهِ قد صدقَ رسولُ اللهِ إنَّ حظَّ طالبِ العلمِ العاملِ بِه لوَافِر، تضعُ الملائكةُ أجنحتَها له رضًا، يستغفرُ له من السماواتِ والأرض حتى حيتان البَحر، فضله على بقيةِ الخَلق فضل القمرِ على الكواكبِ كلّها، وفوقَ ذلكَ كلّه فَهم ورَثةُ رسولِ اللهِ، وحَملةُ دِينه، ونَقلةُ سنّتِه، وحماةَ شِرْعَته، وقلوبُهم مَحلَّ تنزّلِ سكينةِ ربّهم.

المطلب الثاني: عندَ قراءةِ القُرآن

القرآنُ كَلامُ اللهِ أنزَله رحمةً لِلعالمين، وهدايةً للسَّالِكين، ونورًا لِلمهتدين، ودليلًا للحيارَى والتّائِهين، مَن قالَ بِه صدَق، ومنْ حكمَ بِه عَدل، ومنْ عمِلَ به هُدي وهو هدىً وشِفاء ورحمةٌ ونور وسكينةٌ وطأنينةٌ ويَقين، يَرفعُ اللهُ بِه أقوامًا ويَضعُ آخَرين، فقدْ ثبتَ من حديثِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ ﷺ أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: "إنَّ اللهَ يَرفعُ بِهَذا الكِتابِ أقوامًا ويَضعُ آخرين"[٣٢]؛ وهذه الرّفعةُ تَقتضِي زيادةَ الإيمَان، وعظيمَ الثّواب؛ ذلكَ عندَما يَطمئنُ القَلبُ الّذي يَجد في آياتِ هذا القرآنِ مَا يزيده إيمانًا، وما يَنتهي به إلى الاطمِئنَان، وإنَّ هذا القرآنَ يَتعامل مع القلبِ البشريّ بِلا وسَاطة، ولا يحولُ بينَه وبينَه شيءٌ إلا الكُفر الذي يَحجبه عن القَلبِ ويَحجب القلبَ عنْه، فإذَا رفعَ هذا الحجابُ بِالإيمانِ وجدَ القَلبُ حلاوةَ هذا القرآن، ووجدَ في إيقاعَاتِه المتكررةِ زيادةً في الإيمانِ تَبلغ إلَى الاطمئنَان، وكمَا أنَّ إيقاعاتِ القرآن على القَلب المؤمنِ تزيدُه إيمانًا، فإنَّ القَلب المؤمنَ هو الّذي يُدرك هذه الإيقاعاتِ التي تزيده إيمانًا"[٣٣]. وهذا ما يُحققُ السكينةَ التي ينزلها اللهُ ﷻ على قلوبِ التَّالين والذَّاكرين، والدَّارِسين والعَامِلين بآياتِ ربِّ العَالَمين، فضلًا عن ذكرِه لهَم، والمَلائكة من حولِهم، تغشَاهم الرّحمة، وتتالُهم المَغفرة، فَعن أبي هُريرة ﷺ، أنَّ النّبيّ ﷺ قالَ: "مَا اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ

يتلونَ كتابَ الله ويتدارسُونَه بينَهم، إلّا نزلتْ عَليهم السَّكِينةَ وغَشِيَتهُم الرَّحمَةُ، وحفَّتْهم المَلائكةُ، وذَكرهُمُ اللهُ فِيمَن عندَه"(٣٤)، ويَشملُ ذلكَ الّذين يقرأونَ كتابَ الله، سواء أكانتْ هذه القراءةُ بأنْ يقومَ شخصٌ ويقرأ ويفسِّر أو غيرُه يُفسِّر، أو أنّهم يجتمعونَ بحيث يقرأُ واحدٌ منهم مقدارًا من القرآنِ ويَستمعُ الباقون، ويكونُ هناكَ شخصٌ يصوِّب قراءَته ويبيّن ما عليها مِن ملاحظات، كلّ ذلكَ يدخلُ تحتَ التدارس، وكذلكَ تأملُ ما فيه ومعرفةُ ما فيه وتدبّرُ ما فيه"(٣٥). ومِن الجَديرِ ذكرُه والتنبيهُ عليه؛ وجوب أنْ يحذرَ أصحابُ القرآنِ من أن يسقطوا في شركِ الرِّياء، أو أن يدفَعهم حالُهم إلى استباحَةِ العجبِ، أو أن يطلبوا بقراءتِهم صرفَ وجوه النّاسِ إليهم، فيتركهم ربّنا وشركهم، وهو -سبحانه- أغنى ما يكونُ عنهم، بل إنَّ هذا الأمرَ موجبٌ لهلاكِهم وعذابِهم، فَعن أبي هريرةَ ﷺ أنّه قال: "حدَّثني رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- إذا كانَ يومُ القِيامة نزلَ إلى العِبادِ لِيقضيَ بينَهم وكلّ أمّةٍ جاثِية فأوّل مَن يَدعو بِه رجلٌ جمعَ القرآنَ، ورجلٌ يُقتَل في سبيلِ اللهِ، ورجلٌ كثيرُ المَال، فَيقول اللهُ لِلقارِئ: أَلم أعلّمك مَا أنزلتُ على رسولِي، قال: بَلَى يَا رَبّ، قالَ: فمَاذا عملتَ فيمَا عَلِمت، قال: كنتُ أقومُ به آناءَ الليلِ وآنَاءَ النّهار، فيقولُ اللهُ لَه كَذبت، وتقولُ الملائكةُ له: كذَبت، فيقولُ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: أردتَّ أنْ يُقال: فلان قارِئ فقدْ قِيل، ويُؤتى بصاحبِ المَال فَيقول: ألمْ أوسِّع عليكَ حتّى لمْ أدعكَ تحتاج إلى أحَد، قالَ: بَلى، قال: فمَاذا عملتَ فيما آتيتُك، قال: كنتُ أصلُ الرّحمَ وأتصدّق، فيقولُ الله: كذَبت، وتقولُ الملائكةُ كذَبت، ويقولُ الله: بل أردتّ أنْ يقالَ: فلان جوَاد فقدْ قيلَ ذَلك، ويُؤتى بالرَّجلِ الذي قتِلَ في سَبيلِ اللهِ فيُقال لَه: فيمَ قُتلت، فَيقول: أمرِتُ بالجهادِ في سَبيلك فقاتلتُ حتى قُتلت، فيقولُ اللهُ: كذَبت، وتقولُ الملائكةُ لَه: كذبت ويقولُ الله: بل أردتّ أن يقالَ: فلان جَريء فقد قيلَ ذلك، ثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ ﷺ على رُكْبتي فقال: "يَا أبا هريرة أولئكَ الثلاثة أوّل خلقِ اللهِ تُسعّر بِهم النّار يوم القيامة"(٣٦). ولا بأسَ بأنْ أقولَ إنَّ تنزّلَ السّكينةِ يكونُ حينَ قراءةِ القرآنِ عمومًا، ولكن ثمَّة سورٌ قد خُصّتْ بالذكرِ ومثالها:

تَنزّلُ السّكينةِ وحصولها عندَ قراءةِ سورةِ الكَهف؛ وهذه فضيلةٌ عَظيمة لِهذه السّورة الجَليلة، والتي قدْ جاءَ في فضلِها أنّ من قرأهَا كانتْ له نورًا وضياءً، فَعن أَبِي سعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، قالَ: "مَنْ قرأَ سورَةَ الكهفِ كمَا أُنزِلَتْ كانتْ لهُ نُورًا مِن مَقامِهِ إِلَى مكَّة، ومنْ قرَأَ بِعشرِ آياتٍ مِن آخِرِهَا فخَرَجَ الدَّجَّالُ لَمْ يُسَلَّطْ عَليه"(٣٧)، وذلكَ يكونُ لِمَن قرأَها فأحسنَ قراءَتها، وأدَّاها فأحكمَ أداءَها، وفَهمَ معانِيها، وعمِلَ بمقتَضَاها، وقد

رُوِيَ أنَّ رَجُلاً كانَ يَقرأُ سورةَ الكَهفِ ذاتَ لَيلة فَرَأى دابَّتَهُ تَركضُ، فنظرَ فإذَا مِثلُ الغمامَةِ أوِ السحابَةِ، فأَتَى رسُولَ اللَّهِ ﷺ، فذَكَرَ ذلكَ له، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: "تِلكَ السَّكِينَةُ أُنزِلتْ عندَ القُرآنِ، أَو لِلقُرآنِ"(٣٨)، وهذا يدلُّ علَى أنّ السّكينة كانتْ في تلكَ الغَمامةِ أو السّحابة، واللهُ -سبحَانه- يُوكلُ الملائكةَ بذلكَ -واللهُ أعلم-، ولذلكَ ترجمَ البخاريّ "بابُ نزولِ السّكينةِ والملائكةِ عندَ القراءةِ". ومعلومٌ أنَّ الملائكةَ تُحبّ أن تسمعَ القرآن من بَني آدم لا سيّما قراءة المُحسنين منهم. وقد وردَ أنَّ أُسَيد بن حُضَير ﷺ كانَ حسنَ الصَّوت بِالقرآن، وكانَ يقرأُ القرآنَ ذاتَ ليلةٍ فَنزلتْ المَلائكةُ تَستمعُ لِصَوتِه ودَنتْ منْه، فقالَ النّبيّ ﷺ لَأُسيد: "تِلْكَ الملائِكَةُ دَنتْ لِصَوتكَ، وَلو قَرأت لأصبحت تنظرُ النّاسُ إليهَا لا تَتوارَى مِنهم..."(٣٩)، فدلَّ ذلكَ على حِرصِ الملائكةِ على سماعِ كتابِ اللهِ مِن بَني آدَم. وقد جاءَ في الحديثِ أيضًا أنَّ البيتَ الّذي يُقرأ فِيه القرآن يُضيءُ لأهلِ السّماء كمَا يُضيئ النَّجمُ لِأهلِ الأرضِ وتَحضره المَلائكَة(٤٠).

ولَعمرُ اللهِ إنَّ المسلمينَ اليومَ أحوجَ ما يكونونَ للزومِ القرآنِ قراءةً وتدبُّرًا وفَهمًا وتفسيرًا وتجويدًا وتطبيقًا، في ظلِّ ما يعصفُ بأمّة الإسلامِ من خطوب، وما يَحيقُ بِها من كُروب، وما تموجُ به بعضُ نفوسِ المسلمينَ من اضطراباتٍ ومشاكل، وويكأنّهم عطشى ومواردُ الماءَ أمامهم وفي يديهم؛ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٤١)، فالقرآنُ هو الشّفاء هو الدّواء لكلّ ألمٍ، وهمٍّ، وغمٍّ، وحَزَن، هو المنجّي من كلّ حيرةٍ، والهادي إلى كلِّ خِيرَة، فما أحوجنا اليومَ أنْ نتوبَ وأن نؤوبَ وأن نُنيب، واللهِ ما أحوجنَا إلى عودةٍ لكتابِ ربِّنا.

المطلب الثالث: التواضع

والتواضعُ سَمتُ العارفينَ، العالِمينَ، العامِلين، المُخلِصِين، يبلغونَ أعظمَ درجاتِ الدّنيا، ويرتقونَ أرقى منازلها، وما يفتأونَ يُلينونَ للمسلمينَ جانِبهم، ويخفضونَ لهم جناحهم، تراهم يتكلّمونَ وعليهم السّكينة، يعملونَ وعليهم السّكينة، بل إنَّ صمتَهم وسكونَهم سَكينَة، فَالتواضعُ خُلقٌ جَليل، وطبعٌ أصِيل، وأمرٌ إلهيٌّ، وهديٌ نبويٌّ، وسمتٌ يَبعثُ الوَقار، وحالٌ يَجلبُ الجَلال، وهو موطنٌ لِتحقُّقِ السَّكينة، وشمولُ المَغفرة، فعَنْ أبِي هُريرَة ﷺ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "رَأسُ الكُفرِ نحوَ المَشرقِ، والفَخرُ والخُيَلاءُ في أَهلِ الخيلِ والإبِلِ، والفَدَّادِينَ أَهلِ الوَبَرِ، والسَّكينَةُ في أَهلِ الغَنَمِ"(٤٢). ولعلَّ في كلامِ المجدِ ابنِ تيميّةَ بيانًا وتوضيحًا لهذا الحديثِ إذ يقول: "وأصلُ هذا أنَّ اللهَ جبلَ بنِي آدمَ بل سائرَ المخلوقاتِ على التفاعلِ بينَ الشَّيئين المُتشابِهين وكلّما كانت المشابهةُ أقوَى وأكثر فَالتفاعل في الأخلاقِ والصّفات أتَم حتى

يؤولَ الأمرُ إلى أن لا يتميزَ أحدهمَا عن الآخر إلا بِالمَعنى، وكلّما كانَ بينَ إنسانٍ وإنسَان مشاركة في جنسٍ خاصّ كانَ التفاعلُ فِيه أشدّ، ثمّ بينه وبينَ سائرِ الحيوان مشاركةٌ في الجنس المتوسطِ فلابدَّ من نوعِ تفاعلٍ بقدره ثمّ بينَه وبينَ الثباتِ مشاركةٌ في الجنسِ البعيدِ مثلًا فَلابدَّ من نوعٍ ما من المفاعلةِ لِهذا الأصلِ وقع التأثرِ والتَأثير في بَني آدَم واكتساب بعضِهم أخلاقَ بعض بالمعاشرةِ والمُشاكَلة؛ وكَذا الآدمِيّ إذا عاشرَ نوعًا من الحيوانِ اكتسبَ بعضَ أخلاقِه فلذلكَ صارَ الخُيلاء والفَخر في أهلِ الإبلِ، والسَّكينة في أهلِ الغَنم، وصارَ الجمَّالونَ والبغَّالونَ فيهم أخلاق مذمومةٌ من أخلاقِ الجِمال والبِغال، وصارَ الحيوانُ الإنسِيّ فيه بعضُ أخلاقِ النّاس من العِشرة والمُؤالفة وقلةِ النّفرة، فالمشَابهةُ والمشاكلةُ في الأمورِ الظَّاهرة تُوجب مشاكلةً ومشابهةً في الباطنةِ على وَجه المسارقةِ والتدريجِ الخَفِي"[٤٣].

ولقد مدحَ اللهُ أهلَ التواضعِ وشرّف قدرَهم، وأعلَى ذِكرهم فقالَ ﷻ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٤٤]؛ فَمِن صِفاتِ عِبادِ اللَّهِ المؤمنينَ أنّهم يَمشونَ على الأرضِ بِسكينةٍ وَوقارٍ مِن غيرِ تجَبّرٍ ولا استِكبَارٍ، كما قالَ ﷻ: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾[٤٥]، وكمَا ثبت من حديثِ ابنِ مَسعود أنَّه قَال: قالَ النّبيُّ ﷺ: "أَلا أُخبِرُكم بِمنْ يَحرُمُ علَى النَّارِ أَو بِمنْ تَحرُمُ عليهِ النَّارُ، على كُلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهلٍ"[٤٦]. "فإنَّهم يمشونَ من غيرِ استِكبَارٍ ولَا مَرح، وَلا أَشَر ولا بَطَر، ولَيسَ المرَادُ أنَّهُم يمشونَ كالمَرضَى منَ النَّصَائعِ تَصنُّعًا ورِيَاءً، فَقَدْ كانَ سيِّدُ وَلدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كأَنَّما يَنحَطُّ مِنْ صَبَب، وكأَنَّمَا الأَرضُ تُطْوَى لهُ"[٤٧]، وَقَد رويَ عن عَبدِ اللَّهِ بن المبارَكِ ﷺ أنَّه قَال: "إنَّ المؤمنِينَ قَومٌ ذُلُل، ذَلَّتْ مِنهُم –واللَّهِ– الأسماعُ والأَبصَارُ والجوَارِحُ، حتَّى تَحسَبَهُمْ مَرضَى وما بِالقَومِ مِن مرَضٍ، وإنَّهُم لأَصِحَّاءُ، ولكِنَّهُم دخلَهُم مِن الخَوفِ مَا لَم يَدخُلْ غَيرَهم، ومَنَعهُم مِنَ الدُّنيَا عِلمُهُمْ بالآخرَةِ، فقالُوا: الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي أَذهبَ عنَّا الحزَنَ. أمَا واللَّهِ مَا أَحزنهُم حزَنُ النَّاسِ، ولَا تعاظَمَ في نُفوسهِم شَيءٌ طلبُوا به الجنَّةَ، أَبكاهُمُ الخَوفُ منَ النَّارِ، وإنَّه مَنْ لَمْ يتَعَزَّ بِعزَاءِ اللَّهِ تَقَطَّع نفسُه عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، ومنْ لَم يرَ لِلَّهِ نِعمَةً إلَّا في مَطعَمٍ أو فِي مشرَبٍ، فَقَدْ قلَّ عِلمُهُ وحضَر عذابهُ"[٤٨].

ثمَّ إنَّ اللهَ ﷻ قد ذمَّ الكِبرَ وأهلَه، وجعلَه من الكبائرِ التي تُوجبُ العُقوبة، وتُثبتُ العَذَاب، فَعَن عَبدِ اللهِ بن مسعودٍ ﷺ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: "لا يَدْخلُ الجَنَّةَ من كانَ في قَلبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ" قالَ رجُلٌ: إنَّ الرَّجلَ يُحِبُّ أنْ يكونَ ثَوبهُ حَسنًا ونَعلُهُ

حَسنَةً، قالَ: "إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ"[٤٩]، ومعلومٌ أنَّ الكِبرَ يَقتضي من صاحبِه أن يزيغَ عن الحق، وأن ينصرَ الظَّالم، ويقهرَ المَظلوم، وأن يحيدَ عن طريقِ اللهِ أنفةً وكِبرًا وجحودًا، بخلافِ المتواضعينَ أهل السّكينةِ.

المبحث الثالث
عِباداتٌ سببٌ في تنزّلِ السَّكينة

ودينُ اللهِ –عزَّ وجلَّ– هو دينُ السّكينةِ، والطمأنينَة، والهدوء، والراحة النفسيّة، فحينَ يضطربُ أهل الأديانِ الأخرى، وحين يتخبّطُ أهل الأهواء، ترى أهلَ الإيمانِ وعليهم السّكينة، وإن جلَّ الخَطبُ، وفَدح الكَرب، يقينهم في قلوبِهم، وسكينتُهم ينزّلها عليهم ربّهم، لقاءَ ما عبَدوه وما وحّدوه، وما أقاموا من أمرِه، وما اجتنبوا من نَهيه.

والعِباداتُ التي افترضها ربُّ العِزَّةِ –سبحانَه– على عبَاده كلّها تؤدي إلى حصولِ السّكينةِ لَهم، ومحصلّتها طمانينةٌ وراحةٌ لقلوبِهم، أوليسَ سبحانه أعلم بِمن خلقَهم، وبما يُصلحهم، أوَلم يَقل –تعالى–: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[٥٠]، فلا راحةَ إلا بذكرِ الله، ولا اطمئنَانَ إلا في ظلّ هُداه، ولا يقينَ إلا في التزامِ ما أمرَ بِه، واجتنابِ ما زجرَ عباده عنه ونَهَى، ولعلّي في هذه المطالبِ أذكرُ وأَخّصّ بعضَ عباداتٍ وقُربُاتٍ يتحصّل بالتزامِها حصولُ السّكينةِ، والطمأنينةِ، والراحةِ، واليقينِ، في قلوبِ المُخْبِتين.

المطلب الأول: إقامَة الصَّلَاة

والصَّلاةُ ملاذُ المؤمنِ الأول بربِّه، ولقاؤه الأعظمُ بِه، يفزعُ إليها في اليومِ والليلةِ خمسَ مرات، طلبًا للرَّحمات والحسنات، والتجاءً إلى اللهِ من الخطوبِ والملمّات، هي عمادُ الدِّين، وثَاني الأَركان العِظَام، وأفضلُ وأعظمُ لوازمِ الإيمان، وهي قُربَةٌ يَرفع اللهُ بهَا الدرجات، ويحطّ بهَا السّيئات، ويكثرُ بهَا الحَسنات، وهي أوّل الوَاجبات لِحصول الرّحمات، "ولقدْ كانَ النّبيُّ ﷺ إذَا حَزَبَه أمرٌ صلّى"[٥١]، ليطمئنَ بهَا قَلبه، وتَسكنُ نفسه، وتهدأ جوارِحه، وتحقّق مطالبه، فهي سكينَةُ المُؤمِنين، وملجَأُ الخَاشِعين، وملاذُ الخَائِفين.

ويَالِكرَامةِ وَشرفِ أنْ يَقفَ المَرءُ بينَ يَدي مَلك الملوك، وربِّ الأَرباب، وخالقِ السمواتِ والأرضِ مسبِّبِ الأسباب، خاشعًا مُتذَلّلًا، يَسأله رَحمته ورِضوَانه، ويَستجيرُ بِه مِن سَخطه وعَذَابِه، فالمؤمنُ الفَطنُ اللبِيب يُحسِنُ الوقوف بينَ يدي ربِّه، ويَأتي

صلاتَه وعليه السَّكينةُ والإجلال، والطمأنينة والوَقار، فقد رُويَ عَن أَبي هريرَةَ أنَّه قالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: "إذا ثُوِّبَ بِالصَّلاةِ فَلا يَسْعَ إليهَا أَحدكمْ، ولكنْ لِيمْشِ وعليهِ السَّكِينَةُ والوَقارُ، صَلِّ مَا أَدرَكتَ، واقضِ ما سَبَقَكَ"(٥٢)، "فَكلّ مَن لمْ يَخَف فواتَ صلاتِه فَعَلَيه أنْ يأتيهَا بِالسَّكينةِ والوَقار، وتَرْكِ السَّعي وتَقريبِ الخُطَا لِأَمرِ النَّبِيِّ ﷺ بذلِكَ وهوَ الحُجَّةُ، امتثالًا واقتداءً واتّباعًا"(٥٣).

"وتتحققُ السَّكينة وتتنزّل في تَأَنِّي المُصَلِّي فِي الحرَكاتِ، واجْتِناب العَبَثِ، والوَقَار في الهَيئَةِ كَغَضِّ البَصَرِ، وخَفضِ الصَّوتِ، وعدَمِ الِالتِفاتِ"(٥٤)، ولهذا فقدْ كانَ من أمرِ النّبيّ ﷺ لِصَحابَته الكرامِ قوله ﷺ:"لاَ تَقُومُوا حَتَّى تَرَوْنِي، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ"(٥٥). قالَ الحَسن: "أَمَا واللهِ مَا هو بالسَّعْي على الأقدَام، وقد نُهوا أن يَأتوا الصّلاة إلا وَعليهم السَّكِينةُ والوَقَار، وَلَكن بِالقلوبِ والنِّيَّات والخُشوع"(٥٦)، فبالتزامِ هذا الأمر يَتحققُ الخُشوع، وَيَعظُم اليَقين، وتتنزّل السَّكينة، وقد قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُون﴾(٥٧)، "وقد قيل إن الله لما خلق الله جنّة عَدن، وَغَرَسَهَا بِيَدِهِ، نَظَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ لَهَا: "تَكَلَّمِي". فَقَالَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، قَالَ كَعْبُ الأَحبَارِ: "لِمَا أعدَّ لَهُم فِيها منَ الكرامَة"(٥٨). وقالَ الطبَريُّ في تفسيرِه: "يقولُ تعَالى ذِكرُه: الذينَ هُم في صَلاتِهم إذَا قامُوا فيهَا خَاشِعون، وخُشوعُهم فيهَا تَذَلّلهم للهِ فِيها بِطاعتِه، وَقيامهم فيهَا بمَا أمرَهم بِالقيامِ بِه فِيها"(٥٩).

وكلما زادتْ السَّكينةُ عظُم الخُشوع، وكلمَا عَظُم الخشوعُ تَحقَّقت الكَرامة، وإذَا تحقَّقت الكَرامة ثَبتَ الرّضوَان، ولِهَذا رُوي عَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنَّه قَالَ: "حُبِّبَ إليَّ الطِّيب وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي فِي الصَّلاةِ"(٦٠)، لِأنَّها سَببٌ في الانشغالِ بمَا عندَ الله، وترك للدُّنيا ومَا فِيها، وكلّما كانَ ذلكَ حَصلت السَّكينة، وثَبت الخُشوع، وقد قَالَ الحسنُ البَصريُّ: "كانَ خُشُوعهُم فِي قلوبهِم، فغَضُّوا بذلِكَ أَبصارَهُم، وخَفَضُوا الجَنَاحَ"(٦١). وَعندئذٍ تُصبحُ الصَّلاةُ مَناجاتهم التي يُناجونَ اللهَ بهَا، وأُنسُهم الذي يَأنَسونَ بهَا، وسلواهم التي يَسلونَ بِها، وَتصير لَهم نورًا في حياتِهم، وعونًا في أمورهم كلّها، فَعَن أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ ﷺ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: "الطُّهورُ شَطرُ الإيمانِ والحَمدُ لِلَّهِ تَملَأُ المِيزَانَ، وسُبحَانَ اللهِ والحَمدُ لِلَّهِ تَمْلَآن –أَو تَمْلَأُ– مَا بَينَ السَّمَاواتِ وَالأَرضِ، والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرهانٌ وَالصَّبرُ ضِيَاءٌ، والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ علَيكَ، كلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا"(٦٢)، "فَالصّلاة نورٌ عن المَعَاصي، وهدايةٌ للسَّالكينَ الدَّرب، يُحتمل أنَّ المرادَ أن يكونَ أجرُها نورًا لِصَاحبهَا

يومَ القِيامَة، وهي سببٌ لإشراقِ أَنوار المَعارف، وانشِراح القَلب، ومُكَاشفَات الحقائق لِتفَرغ القلبِ فيها، والإقبالِ بِالجسمِ وَالقلبِ على اللهِ وشغلِ الجَوارح بهَا عمَّا سِوَاه(٦٣).

وكَما قالَ رسولنا ﷺ وأَوصَى في آخرِ وصاياه: "الصَّلاةَ الصّلاة"(٦٤)، فلولا أهميّتها وعظمُ قَدرِها عندَ ربّها ما بدأَ بها نبيّنا، ولا أوصى بِها، فويكأنّه يقول منْ أرادَ الهناءَ والسّكينةَ والطمأنينة والرّاحةَ فليزمِ الصّلاة، فإنّها واللهِ من أعظمِ أسبابِ تنزلِ السّكينةِ وأوّلِها. والعكسُ بالعكسِ تمامًا، فتركُ الصّلاةِ أو التهاونُ فيها، حاصله تخبّط، وانتكاسٌ، وبؤسٌ ويأسٌ، واضطرابٌ، وعدمُ سكون، فأيَّ سكينةٍ يمكنُ أن يكونَ عليها من ينادِيه منادي ربّه في اليومِ خمسًا ولا يُجيب، أيّ سَكينة؟!.

فما أحوجنا إلى امتثالِ أمرِ اللهِ وأمرَ نبيّه في الصّلاة، اللهَ اللهَ فيها، لقاءُ العبدِ بربّه، فيها يبثّه همّه، ويشكو ما يلاقيه في هذه الدّنيا من تَعبٍ ونَصب، ويسندُ كلَّ أموره ويوكلها إليه، فيجيبه ربّه منعمًا متفضّلًا بالراحةِ والاطمئنانِ والسّكينة.

المطلب الثاني: أداءُ الحجِّ

والحَجُّ خَامِس الأركَان، وجهادُ المؤمنين، ودليلُ حبّهم لربِّ العالمين، وَهو منْ أفضَلِ العِبادات التي شرَعها لِعبَاده، وإنَّ أداء مَناسكِ الحجِّ وفروضِه مُوجبٌ لِلسَّكِينة، لِمَن أتقنَ أدَاءَها، وأقامَ أركانَها، وفَقه سننَها، وهي أمرٌ من النّبيّ ﷺ لِصَحبِه، وكلِّ من اقتفى هدْيَه؛ فقدْ رويَ عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: "دَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ وعلَيهِ السَّكِينَةُ، وأَوضع في وَادِي مُحَسِّرٍ، وأراهُمْ مِثل حَصَى الخذْفِ، وأَمَرَهُم بالسَّكينةِ، وقالَ: "لِتَأْخُذْ أُمَّتِي مَنَاسِكَهَا، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاهُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا"(٦٥)، وفِي روايةٍ عن ابنِ عبّاس أنّه دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَومَ عَرفَةَ، فَسمِعَ النَّبِيُّ ﷺ، وَراءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا، وضَربًا للإبِلِ، فأَشَارَ بِسَوطِهِ إِلَيهِم، وقالَ ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ، عليكُم بالسَّكِينةِ، فإنَّ البِرَّ لَيسَ بِالإيضَاعِ"(٦٦). "وإنَّ ملازمةَ الرِّفقِ وعدمَ المُزاحمَةِ سببٌ في تحقّقِ السَّكينة، وثبوتِ الوَقَار، وهو وإنْ كانَ الأمرُ بالسَّكينة في هذا الموضعِ خاصًّا؛ إلّا أنَّ معنَاه عَام؛ فقدْ نهَاهم ﷺ عن الإيضَاع والجَري إبقَاءً عَليهم، ولئلّا يجحفُوا بأنفسِهم بالتسابقِ من أجلِ بُعْدِ المسَافة، لأنَّها كانتْ تبهرهم فَيفشلوا وتذهب ريحهُم، فقد نَهى عن البلوغِ إلَى مثلِ هَذه الحَال. وإنَّ أمرَه ﷺ بِالسَّكينةِ إنَّما كانَ في الوقتِ الذي لمْ يَجد فَجوة، وأنّه حينَ وجدَ فجوةً سارَ يسيرًا فوقَ ذلك، وإنّما أرادَ بالسكينةِ في وقتِ الزِّحَام(٦٧)، وهذا الأمرُ عامٌّ وليسَ محصورًا في هذا الأمرِ فَحسب. ويستنبطُ من ذلكَ ملازمةُ الرِّفقِ في كلِّ الأمور، فمَا كانَ الرفقُ في شيءٍ إلا زَانه؛ ولهَذا لمَّا رأى عمرُ سرعةَ النّاسِ في

الإفَاضَةِ مِن عَرفَة قَال: "واللهِ إنِّي لَأعلمُ أنَّ البرَّ ليسَ بِرفعهَا أذرعهَا، ولكنَّ البرَّ شيءٌ تَصبرُ عَليه القُلوب"، وقالَ عمرُ بن عبدِ العزيز في خطبَتِه يومَ عَرفة: "إنّكم شَخصتُم من القريبِ والبَعيد، وتكلّفتم مِن المَؤونَةِ مَا شاءَ الله، وليسَ السابقُ منْ سَبقَ بعيرُه وفَرسه، ولكنَّ السابقَ مَن غُفِرَ لَه"(٦٨).

وإذا ما امتثلَ المؤمنُ الحاجُّ كلّ هذه الأوامرَ، واستقبلَ بيتَ اللهِ، وأدّى مناسِكه وعليه السّكينةُ والوَقار، فإنَّ العزَّةَ من اللهِ تناله، والرّفعة والسّمو مآلُه، وهذه الرّفعة: "إنّما هِي رِفعةٌ عن الدَّنَايَا ومُحقرَات الأُمور، وإطلاقٌ من أَسرِ العَادات وأهواءِ النّفوس، والبعدِ عن الجِدَال والمِرَاء والجَهل، والرَّفَث، والصَّخَبِ، والإسَاءة إلى النّاس؛ امتثالاً لقوله ﷻ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(٦٩).

وينالُ المؤمنُ العزةَ في هذا المَوسم العَظيم من جرّاء حجِّه، وكثرةِ أعمالِه الصَّالِحَة، وانقِطَاعه عمَّا سِوى الله ﷻ وهذا هو سرُّ العِزّةِ الأَعظم؛ إذْ ينالُ بِسببِ ذلكَ عزةَ نفسٍ، وزيادةَ إيمَانٍ، واتصالًا وقُربًا من الرَّحمن، كمَا قالَ اللهُ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٧٠). ويَنالُ المُسلمُ العزَّةَ مِن جرّاء تَذَكُّره الآخِرَة؛ فإذَا رأى الحَاجُّ ازدحامَ النَّاس، وَرأى بعضَهم يَموجُ فِي بعضٍ وهُم في صَعيدٍ وَاحد، وبِلباس وَاحد، وقَد حَسروا عن رُؤوسهم، وتجرّدوا عن ثِيابهم، وَلبِسوا الأَردِيَة والأُزر، وتجرّدوا مِن ملَذَّاتِ الدُّنيا ومتعتها؛ تَذَكَّر يومَ حشرِه على ربّه؛ فَيبعثُه ذلكَ إلى الاستعدادِ لِلآخرة، ويقودُه إلى استصغارِه لمتاعِ الدنيا، ويرفَعه عن الاستغراقِ فيها، ويُكْبِرُ بهمَّته عن جعلِها قبلةً يُولّي وجهَه شطرَها حيثُ مَا كَان"(٧١).

ولقد شرعَ اللهُ لعباده المؤمنين عيدًا مكافأةً لهم بعدَ تعبّدهم وتنسّكهم، وامتثالهم لأوامرِ اللهِ في الحجّ، فَيومُ العيدِ هو ختامُ الأيامِ الأوائل من ذِي الحِجّة، وهو يومٌ جليلٌ من أجلّ أيامِ اللهِ إن لم يكن أجلّها، وقد أُمر المسلمون فيه بأن يكونوا في أحسن هيئة، وأجمل حال، يَعلوهم البهاء والجلال، وتلازمهم السّكينةُ والوقار، فقد روى الحَسَنُ بن عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: "أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَلبسَ أَجوَدَ مَا نَجِد، وأَن نُضَحِّي بِأسمَنِ مَا نَجِد، البَقَرَةُ عَن سَبعَةٍ، والجزُورُ عن عشرَةٍ، وَأَن نُظهِرَ التَّكبِيرَ، وعليْنَا السَّكِينَةُ وَالوَقَار"(٧٢). وما أجملَه من مَنظر، وما أحسَنه من حال، وما أعظَمه من مَوقف؛ عندَما نُظهر التكبيرَ للهِ ونحنُ في خشوعٍ وتذلّل، وسَكينة وتبَتّل؛ فَنثبت انكسارَنا لخالقنا، وتعظيمنا لربّنا، وحبّنا وشكرَنا له، ورِضَانَا له ربًّا خالقًا رازقًا مالكًا.

المطلب الثالث: الجهاد في سبيل الله

وأعظِم بهذا الأمرِ وأكرم؛ فَهو تاجُ الفُروض، وسادسُ الأركان، وذروةُ سَنامِ الإسلام، به يُنصرُ الدِّينُ ويُحفَظ، وتُقام الشّريعَة وتُحمَى، ويُنصَر المُستضعَفون، وتكونُ كلمةُ اللهِ هي العُليا، وكلمةُ الذينَ كفروا السّفلَى، وبِه أغاظَ اللهُ المشرِكين، ودحضَ كيدَ المجرِمين، وأخزَى المُنَافِقين، وَشَفى صدورَ المُؤمنين، الذينَ وَعدَهم بِالرّضوانِ، وحُسنِ المَقام، والحياةِ الأبديّةِ الخالدةِ في الجِنانِ إنْ هم لزموا الجهادَ في سبيلِه ورفعوا رايةَ الإسلَام. فيبيعُ الصّادقونَ أرواحهم، يبذلونَ دماءَهم، ومهجَهم جذلينَ فَرِحين، مُقبِلينَ غيرَ مُدبرين، عقدُهم مع ربِّ العالمينَ ثمِينٌ ثَمين، هَبُونِي أرواحَكم أَهبكُم جنّة عرضها السماواتُ والأرْضين، عِدوني أن تنصروا الدّين، وأعدكم بمنازلِ النبيّين والصّديقِين، ومن أوفى بِعهِده من الله؟!.

ثمَّ إنَّ المُجَاهِدينَ لَمأمورونَ في جهادِهم أن يمتثِلوا السّكينةَ في أنفسِهم، وفي سَيرهم إلى معاركِهم، وليسأَلوا اللهَ ذلك، وذلكَ بعدَ معرفةِ اللهِ ومراقبتِه في أحوالِهم وأعمالِهم؛ والتخلصِ من كلِّ ذنبٍ ومعصيةِ ورياءٍ أو ظلمٍ قد يَشوبُ جهادَهم؛ وَلهَذا كانَ النَّبيّ ﷺ يُكثرُ من الدّعاءِ في غَزواتِه ومشاهِده أن ينزلَ اللهُ عَليهم السَّكينة، فعَنِ البَرَاءِ بن عَازِبٍ ﷺ قالَ: "رأَيتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَندَقِ حتَّى وَارَى التُّرَابُ جِلدَ بَطْنِه، وهُوَ يَرْتَجِزُ بِكلِمَةِ عَبدِ اللهِ بنِ رواحَةَ:

اللهُمَّ لَولَا أَنتَ مَا اهتَدَينَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّينَـــا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَـــةً عَلَينَـــا ... وَثَبِّتِ الأَقدَامَ إِنْ لَاقَينَـــا
إِنَّ الأُلَى قَد بَغَوا عَلَينَـــا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتنَـــةً أَبَينَـــا[٧٣]

ولقد كانَ ما أراده ﷺ فأجابَ اللهُ دعاءَه وحقّقَ رجاءَه، ﷻ إذ قال: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧٤]، وإنَّ في هَذا توجيهٌ عظيمٌ مِن النّبي ﷺ لأصحَابه أنْ يُكثِروا من الدّعاءِ في مَواطنِ الجِهاد والنِّزَال؛ فَهم أحوج ما يكونونَ إلى الدّعاء من غيرهم أن ينزل اللهُ عليهم السكينة في موضعٍ تَزِلُّ بِه الأَقدام، وتَضطربُ النّفوس، وتُخلعُ القلُوب؛ إلّا منْ شاءَ الله؛ كمَا كانَ في غَزوةِ الخَندق؛ والتي كانَ لهَا وقعٌ شديدٌ على قلوبِ أصحابِ محمَّد ﷺ، والتي أخبرَنَا عنه ربّنا ﷻ في كتابِه الحكيم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ

الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٧٥]. واسمعْ في وَصفِ هذا المَشهد لسيدنَا حُذيفَة يقول: "لَقَد رأيتُنا لَيلةَ الأَحزابِ ونحنُ صافُّون قُعود، وأَبُو سفيانَ ومَن معَهُ منَ الأَحزَابِ فَوْقَنَا، وقُرَيظَةُ اليهُودُ أَسفلَ مِنَّا نَخافُهُم على ذَرَارِينَا، ومَا أَتَت عَلَينَا قَطُّ أَشدُّ ظُلمَةً وَلَا أَشدُّ رِيحًا، فِي أَصوَاتِ رِيحِهَا أَمثَالُ الصَّواعقِ، وَهيَ ظُلمَةٌ مَا يَرَى أَحَدُنَا إِصْبَعَه"[٧٦]؛ فكانَ المسلمونَ بِأَمسّ الحاجةِ إِلَى سكونِ أنفسِهم، وثباتِ قلوبِهم، وربَاطةِ جَأشِهم؛ حتى ينجزَ اللهُ وعدَه، ويتمّ أمرَه؛ فكَانوا مأمورينَ بِالثبات، ولزومِ ذكرِ اللهِ ﷻ عملًا بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٧٧]؛ فهذا تَعلِيمٌ من اللَّهِ ﷻ لعِبَاده المُؤمنِينَ آدَابَ اللِّقَاءِ، وطَرِيقَ الشَّجاعةِ عِندَ مُواجهَةِ الأَعدَاءِ[٧٨] ولزومِهم تَقوى اللهِ ﷻ والدّعاء في مواطنِ نِزَالِهم؛ يورثُ في قلوبِهم طمأنينةً، ويبثّ في نفوسهم السّكينة، فروى سيدنا أنسُ بن مَالك ﷺ قال: "كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إِذَا غَزَا قال: "اللهمَّ أنتَ عَضدِي ونَصِيري بِكَ أحولُ وبكَ أَصولُ وبكَ أُقَاتِل"[٧٩]. فاللهُ وحدَه المستعانُ والنّصير، اللهُ وحده عَضدنا ونصيرنا، وحولنا وقوتنا، وملاذنا وملجأنا، لا نَصر ولا غلَبةَ ولا طمأنينةَ ولا سكينةَ ولا راحةَ إلّا بِه ومِنه سبحَانه وتقدّست أسماؤه. وعن عَبدِ اللَّهِ بنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ، عَن رَسولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّه انتَظَرَ فِي بَعضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لقِيَ فِيهَا العَدُوَّ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمسُ قَامَ فِيهِم فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوا لِقاءَ العَدُوِّ، وَاسأَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فإِذا لَقِيتمُوهُم فَاصبِرُوا واعلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ". ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ، مُنزل الْكِتَابِ، ومُجري السَّحَابِ، وهَازم الأحزَاب، اهزِمهِم وانصُرْنَا عَليهم"[٨٠]؛ فَالعبرة في مواجهةِ الأعداءِ ليستْ بِكثرةِ عَدد، أو وَفرة عدّة؛ إنّما العِبرةُ بِثباتِ الرّجال، وعَزم الأبطال، فإذَا ما ثَبتَ الجُند، واستَعانوا بِالله، وذكَروه كثيرًا؛ أنزلَ اللهُ عَليهم سكينَته، وأيّدهم بجندِه، وسَاروا إلى أهدافِهم بكلِّ عزمٍ وحَزم، يَتسابقون إلى الشهادةِ تَسابقَ أعدائِهم إلى الحَياة.

المطلب الرابع: اتباعُ الجَنَائز

الموتُ قيامةُ العَبد الصغرى في هذه الدّنيا، وهو أوّل منازلِ الآخرة، ابتداءً بالقبر وَوحشَته؛ فهو تلكَ الحفرةُ الضيِّقة التي لا أنيسَ بها ولا جَليس، ولا صديقَ ولا سَمير، ولا حَبِيب ولا قَريب. بِه يُوضع كلّ جبَّار وحَقير، وغنيّ وفَقير، وحَكيمٍ وسَفيه، وصالحٍ وطالح، وسَعيد وشَقي؛ ليسَ ثمّ إلا أجسامٌ بَالِية، وعظامٌ ناخِرة، وشعورٌ متناثرة، فهو بيتُ الهَوامّ والدّيدَان، ومَحط البِلى والفَناء، فيه محكمةُ السّؤالِ والمُراجعة، والاختبارِ والمُناقشة والمكاشفَة.

فإمَّا روضةٌ من رياضِ الجَنَّة، أو حفرةٌ من حُفرِ النيرَان، وإمّا دارُ كرامةٍ وسَعادة، أو دارُ إهانَة وشَقاوة. أمّا عندَما تُشيّع الجنائز فيُخيّم على الدّيار سكونٌ طويل، وخشوعٌ جَليل، ما أحَرى المرءَ فيه إلى تفكرِ هذه اللحظَات، واستشعارِ أنّه يومًا ما سيكونُ في هذا المَوقف؛ فَيتحلّى عِندئذٍ بالسَّكينة والوَقار، فعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيهِ جنازَةٌ يُسْرِعُونَ بِهَا المَشيَ فقَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: "لِيَكُنْ عَلَيكُمُ السَّكِينَةُ"(٨١)، وهذا المعنى قدْ اختلفَ علَيه العلماءُ منْ جِهة هل يُسرع في الجنازة أو يقصَد؟ ومعلومٌ أنَّ الجنازةَ قائدَة، والنّاس فيها تبعٌ لهَا، فإنْ كانتْ صالحةً عُجلَ خيرُها، وإن كانتْ طالحةً عجّل شرّها، فَقَصدت السّبيل وأبطأَت المَشي، فقد كانَ النّبي ﷺ يقول: "إذا وضعتْ الجنازةُ فاحتملَهَا الرجالُ على أعنَاقِهم، فإنْ كانتْ صالحةً قالتْ: قدِّمُونِي، وإنْ كانتْ غيرَ صالحَةٍ قالتْ لِأهلهَا: يَا وَيلها أين تذهبونَ بهَا؟ يسمعُ صوتَها كلّ شيءٍ إلا الإنسان، ولو سمعَ لَصَعِقَ"(٨٢). وقد قالَ الإمامُ النووي ﷺ: "جاءَ عن بعضِ السّلف كراهة الإسراعِ بالجنازةِ، ولعلّه يكونُ محمولًا على الإسراعِ المفرطِ الذي يخافُ منه انفجارُ الميّت أو خروجِ شَيءٍ منه... وخالَفهم في ذلكَ آخرون، فقالوا: بل يَمشي بهَا مشيًا ليّنًا، فَهو أفضلُ من غير ذلك، وقالوا: يمشونَ بالجنازةِ مشيًا قصدًا لا يتجاوزونَ به عن الاعتدَال. وقال القاضِي عيَاض في قولِه ﷺ: "أَسْرِعُوا بالجنَازة"(٨٣)، أكثر العلماءِ على أنّ معناه الإسراعُ بحملِها إلى قبرِها، وقيل: الإسراعُ بتجهيزِهَا إذا تحقّق موتُها، والأولُ أظهرُ، ومعنى هذا الإسراع عندَ بعضهم: تركُ التراخي في المَشي به والتبَاطؤ والزّهو في المَشي، ويُكره الإسراعُ الذي يشقّ على منْ يَتبعها ويحرك الميّت، وربّما سبَّب خروجَ شيء منه، وعلى هذا حَملوا نَهي من نهَى عن الدّبيب بها دَبيبَ اليهود من السّلَف وأَمرَ بِالإسراع، وجَمعوا بينَه وبينَ مَن روي عنه النّهي عن الإسرَاع، واستَدلوا بمَا جاءَ في الحديث مفسرًا عنه وهو ما دونَ الخَبَب، وفي حديثٍ آخَر: "عَليكم بالقَصد في جَنائِزكم"(٨٤)، وهذا قولُ جمهورِ العلماءِ وأَبي حَنيفة وأصحابه، والشّافعي"(٨٥).

قالَ الباحثُ: المَشي في الجَنائز لا يكونُ بِإسراعٍ مُفرِط، ولا بِقصدٍ مخِلّ، وإنّما يَغلب على المَشي الهدوءُ والسّكينة، والجَنازةُ قائدة، والنّاس لهَا تَبَع. والسكينةُ لازمةٌ في هذا المقامِ ليستشعرَ حاملو الجنازةِ الموقفَ الذي هُم فيه، فهم يُقبلونَ بهذا الميّتِ على قبرٍ موحشٍ، لا يُدرى أيذهبُ به إلى جنّةٍ أو نار، فيخالُ كلّ منهم أنّه في هذا المَقام قد يكونُ ولو بعَد حين، ويتأمّل أينَ يُذهبُ بِه، وأينَ يكونُ مقامه، وكيف قدومه على

ربِّ العَالَمين؟!.

وإنَّ هذا المقَام الذي يوسدُ فيه المَرءُ التراب؛ أولُ مقامٍ يُسأل فِيه؛ فإنْ كانَ مِن أهلِ السَّكينةِ الخاصّة؛ فإنّه يُنعّم ويَثبت لعملِه الصّالح الذي كانَ محافظًا عَليه؛ وبِمَا أودَعه اللهُ في صَدرِه مِن طمأنِينة وسَكينة بسببِ عملِه الصّالح، وهذا يكونُ سببًا في هَنَائِه ورِضَائه، مَا دامَ في قَبره، وينعّم أيّما تَنعيم، ويُوسّع لَه في قَبره مدَّ البَصر، ويكونُ في أفضلِ حالٍ وخيرِ مقَام.

المبحث الرابع
ثمرات السكينة

والسَّكينةُ هبةٌ جَليلةٌ يَهبهَا اللهُ لِمَن شاءَ من عبادِه المُتقين، وحزبِه المفلِحين، ولَها ثمراتٌ عَديدة نذكر منها في هذه المطالب:

المطلب الأول: هي رحمةٌ من اللهِ ﷻ لعبَاده المُؤمنين

الذينَ آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبِمحمدٍ ﷺ نبيًا ورسولًا؛ وسَلكوا دربَ الهِداية، واستَنَاروا بنورِ الاستقَامة، فينزِّلُ اللهُ عليهم السّكينة، فَتطمئنُ قلوبُهم، وتَسكنُ نفوسُهم. وقد قالَ اللهُ ﷻ في حكايته قصّةَ بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٨٦]، وهذا التابوتُ كانَ قد أُخذَ من بَني إسرائيل على يدِ أعدَائهم الذينَ شرّدوهم من الأرضِ المقَدسةِ التي غَلبوا علَيها على يدِ نبيّهم يُوشَع عليه السلام بعدَ فترةِ التّيه، ووفاةِ موسَى عليه السلام؛ فَسلبوا منهم مقدَّساتهم ممثلةً في ذلكَ التابوتِ الذي كَانوا يحفظونَ فيه مَوروثَات أَنبيائهم من آلِ موسَى وآل هَارون، وقد قيلَ إنّه كانتْ فيه نسخةُ الألواحِ التي أعطاها اللهُ لِمُوسى على الطّور، فَجعلَ لَهم نبيّهم[٨٧] علامةً من الله؛ أن تقعَ خارقةٌ يَشهدونَهَا، فَيَأتيهم التابوتُ بمَا فِيه ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾[٨٨] بينَ السماءِ والأرض، فَتفيضُ على قلوبِهم السّكينة والجَلال والوَقار، بعدَما سكنَ قلوبَهم القلقُ والظّن والاضطراب، فكانت لَهم رحمةَ اللهِ وسكينته عليهم؛ والتي هي فيضٌ من فيوضِ اللهِ -سبحانَه وتعالى-؛ بمَا يَعرفون من آياتِ اللهِ فَيطيعون، ومَا يَأتيهم من نَواهي فَينتهون، وهذه الآيةُ تَكفي دلالةً على صدقِ اختيارِ اللهِ لِطَالوت، فَانتهى القومُ منهَا إلى اليقين[٨٩]. فالسّكينةُ فيضٌ ورَحمة، وأُنسٌ وقُرْبَة، من ربِّ البَرِية.

المطلب الثاني: تَثبيتٌ لِعبادِ اللهِ المجَاهدين

الذين تركوا الدّنيا وزينتَها، وطلبوا الآخرةَ وجنانَها، فطابَ لهم العيشُ في رحابِ الرَّحمن، واشتَاقوا لنورِ ربّهم والجِنان، فسلَّاهم وجَزاهم الإحسان، وأنزلَ عليهم السكينةَ

والاطمئنان، وزادَهم فَضلًا وحبَاهم الرّضوان. كمَا قالَ الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٩٠)، فالمجاهدونَ في سبيلِ ربّهم قدْ يداخلُ قلوبِهم بعضُ ذُعرٍ واضطرابٍ، في وقتِ الشّدائدِ والكُربات، والقَلاقل والملمّات، ولا ملجأَ لهم ولا كاشفَ لكرباتِهم إلا ربّ البريّات ومنزلِ الرّحمات، فَينزلُ عليهم السَّكينة، وتغشَاهم الرَّحمة؛ إذا ما ثَبتتْ أقدامُهم، واطمأنتْ نفوسُهم، بِنصرِ ربِّهم، وهذه من أعظمِ النِّعَم على المُجَاهِدين، ومثل ذلكَ كانَ الّذي حدثَ في حُنَين، عندَما اشتدَّ الكَربُ على رسولِ الله ﷺ، وعلى المسلمينَ الذينَ ثَبَتوا مَعه، حينَما فرَّ النّاسُ وانفضّوا بعدَما اغترّوا بِقوتِهم وعتَادهم، وعَددهِم وعدّتِهم، ثمَّ أنزلَ اللهُ عليهم سكينَته، وغشّاهم طمأنِينَتَه، والأحداثُ في سيرةِ نبيّنا على مثلِ ذلكَ كثيرةٌ.

المطلب الثالث: زِيادةٌ لِلإيمانِ ورِفعةٌ للدَّرجات

وعَقيدةُ أهلِ السّنّة والجَماعة؛ أنَّ الإيمانَ يزيدُ ويَنقص؛ يزيدُ بالطاعاتِ والقُربَات، ويَنقص بالمَعَاصي والزّلّات(٩١)، ومن أعظمِ مَا يزيدُ الإيمانَ، ويُحققُ الإحسَان؛ تلكَ السّكينةُ الّتي ينزلهَا اللهُ ﷻ على قلوبِ عبادِه المُؤمنين؛ الذينَ حقَّقوا إيمانَهم، ورَضِيَ عنهم ربُّهم، وَرضوا عنه، واتبَعوا هَدي نَبيّهم، كمَا قالَ اللهُ ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾(٩٢)، فالذينَ استجَابوا للهِ ولرسولِه، وانقَادوا لِحكمِهما، اطمأَنّت بذلكَ قلوبُهم، واستقرّت بِذلكَ نفوسُهم؛ وزادَهم اللهُ إيمانًا على إيمَانهم، ويقينًا على يَقِينهم(٩٣). وقد ذكرَ المفسرونَ أنَّ اللهَ أرادَ بإنزالِ السّكينة في قلوبِ المؤمنين –أهل الحُدَيبِية– حينَ بَايعوا رسولَ اللهِ ﷺ على منَاجَزة الحربِ مع أهلِ مكّة، بعدَ أن حصلَ لهم ما يُزعجُ النفوسَ ويُريعُ القلوب، من صدِّ الكفارِ لَهم عن دخولِ مكّة، ورجوعِ الصّحابة دونَ بلوغِ مقصودِهم، فلمْ يرجعْ منهم أحدٌ عن الإيمان، بعدَ أن هاجَ الناسُ ومَاجوا، حتّى إنَّ عمرَ بن الخطّاب ﷺ جاءَ إلى النّبي ﷺ يقول: "أنتَ نبيّ اللهِ حقًّا؟" قالَ: "بَلَى"، قال: "ألسْنَا على الحقِّ وعدوُّنا على البَاطل؟" قالَ: "بَلَى"، قال: "فَلِمَ نُعْطِ الدَّنيَّة في دِينِنا إذن؟" فيجيبُ رسولُ اللهِ جوابَ الواثقِ بربّه، المستكينِ لأمره: "إنّي رسولُ اللهِ ولستُ أعصِيه وهو نَاصِرِي"(٩٤).

المطلب الرابع: آياتُها سببٌ في كَشفِ الكربِ وإزالةِ الهم

فالقرآنُ الكَريم شفاءٌ للصُّدور، ورحمةٌ للقُلوب، وطمأنينةٌ وسكينةٌ للمؤمنين، أنزلَه اللهُ ﷻ ليخرجَ الناسَ من كُربَاتِهم إلى سَعادتهم، ومن هُمومهم إلى رِضَاهم، وقد قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٩٥)، فالقرآنُ يُذهبُ مَا في القلوبِ من مَرض، من شكٍّ ونفَاق، وشِركٍ وزَيغٍ

ومَيل، ويَشفي من ذلكَ كلّه. وهو أيضًا رحمةٌ يَحصل مِنها الإيمانُ والحكمةُ وطلبُ الخَير والرّغبة فيه، وليسَ هذا إلا لِمَن آمنَ بِه وصدَّقه واتّبعه، فإنّه يكونُ شفاءً في حقّه ورَحمَة[٩٦].

وقد ذكرَ اللهُ السَّكينةَ في ستةٍ مواضعَ هي التي نقصدُ في بحثِنا هذا[٩٧]، وقد ذكرَ صاحبُ "المَدَارج" أنَّ شيخَ الإسلَامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ ﷺ إذا اشتَدَّتْ عليهِ الأمورُ قرأَ آيات السَّكِينةِ. وقال: "وسَمِعتُه يَقولُ في واقعَةٍ عظيمةٍ جرَتْ لَه في مرضِه، تَعجزُ العقولُ عَن حَملِهَا –منْ محارَبةِ أَرواحٍ شَيطانِيَّةٍ، ظهَرَتْ لَه إذْ ذاكَ في حالِ ضَعْفِ القُوَّة– قالَ: فلمَّا اشتَدَّ علَيَّ الأَمرُ، قلتُ لِأَقاربي ومنْ حَوليَ: اقرَءوا آياتِ السَّكينةِ، قالَ: ثمّ أَقلعَ عنِّي ذلكَ الحَال، وجلَسْتُ وما بِي قَلْبَةٌ. وقَد جَرَّبتُ أَنا أَيضًا قرَاءَةَ هذهِ الآياتِ عندَ اضطِرَابِ القَلبِ بِمَا يَرِدُ عليه. فرَأَيْتُ لهَا تَأْثِيرًا عَظيمًا فِي سُكُونهِ وَطُمَأنينتهِ"[٩٨]. ولعلَّ آيةً واحدةً من كلامِ اللهِ تكفي عن كلِّ دواءٍ، وفيها كلّ الشّفاء والهَناء، فأعظم بكلامِ ربّنا وأكرِم، فَلَئنْ ضاقتْ كلّ السّبل، وبارَتْ كلّ الحِيل، وعظمَ الخطب، وكبرَ الذّنب، فاللهُ ربّنا يناديكم، لا تيأسوا من روحِه، لا تَقنطوا، لا تَفزعوا، لا تجزَعوا، وهلّموا إلى اللهِ، وإلى كتابِه ملاذًا وملجأً، ومأوى، والزموا أمرَه لينعمَ عليكم بسكينةٍ وطمأنينةٍ ويقينٍ لو علموه ملوكُ الأرضِ لجالَدوكم عليه بالسّيوف، كلّ ذلكَ يكونُ لقاءَ لزمِ أمرِ اللهِ وشَرْعه، واجتنابِ معاصيه ونَهيه، ولزومِ سنةِ نبيّه، وهَديه –صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه– ومن نهجَ نهجَه.

الخاتمة:

الحمدُ للهِ الّذي بِنعمتِه تتمُّ الصَّالحات، والصَّلاةُ والسَّلام على خيرِ البريَّات، محمَّد ﷺ وعلى آلِه وصحبِه أفضلُ التحيّات، أمّا بَعد: فبعدَ أن انتَهيتُ بِفضلِ اللهِ من هذا البَحث، وأَسألُ اللهَ –سبحانَه– القَبول، فإنِّي قد تَوصلتُ فيه إلى بعضِ النّتائج والتوصيات، أبيّنها في الآتي:

أولًا: النتائج:

١. السَّكِينة منزلةٌ عظيمَة، وهبةٌ جَليلةٌ من اللهِ؛ لِعباده المُؤمنين

٢. وَهي سببٌ في زِيادةِ الإيمَان، وكَشف الكُرَب، وإزَالةِ الهَمِّ، ودفعِ الغَمّ.

٣. تتنزّلُ سكينةُ اللهِ على عباده المؤمنين إنْ هم أطاعوا أمره، وانتهوا عن نَهيه، وأدّوا ما افترضَه عليهم، فإن حادُوا أو مالوا، اضطربتْ قلوبهم، وذعرتْ نفوسهم، وماجوا وتخبّطوا في ظلماتِ الخوفِ والوَجلِ والاضطراب.

ثانيًا: التوصيات:

١. أن يمتثلَ المسلمونَ اليومَ أمرَ اللهِ، ويجتنبوا نَواهِيه، لينزلَ السّكينةَ عليهم، ويُثيبَهم نصرًا قريبًا.

٢. أن يُستكملَ هذا البحثُ بجمعِ كلِّ المواقفِ والأدلةِ والمناسباتِ التي نزّل اللهُ سكينَته فيها على عباده من خلالِ سنّةِ رسولنا، أو كتابِ ربّنا –سبحانه–.

٣. أن يترجمَ هذا البحثُ إلى اللغةِ الإنجليزيةِ، وغيرها، ليبيّنَ للناسِ كافّةً أنَّ الإسلامَ هو دينُ السّلام الرُّوحي، والسّكينةِ والطمأنينةِ النفسيّة، في حين أنَّ غير المسلمين لم يدعوا شيئًا لم يلجأوا إليه بحثًا عن سكينةٍ، ولكن عبثًا.!

وصلّى اللهُ وسلّمَ وباركَ على المُصطَفَى المُجتَبَى محمَّد ﷺ، وعلى آلهِ، وصحبه وسلَّم، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

هوامش البحث:

---

(1) أخرجه الطبرانيُّ في "معجمه" من حديثِ قَيْلَةَ بنت مَخْرَمَة (٨/٢٥). ورجالُه ثقات، غير أبي عمرَ الضّرِير قالَ فيه أبو حاتم "الجرح والتعديل" (١٨٣/٣)، وابن حجر "تقريب التهذيب" (ص: ١٧٣)، ١٤٢١: "صدوق"، وقالَ الهيثميُّ في "المَجمع": "رجاله ثقات".

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب (٢١٣/١٣).

(3) المرجع السابق.

(4) أخرجه البخاريُّ في "صحيحِه" من حديثِ أبي هرَيرة (١٢٧/٤)، ح ٣٣٠١.

(5) "اختلفَ أهلُ التأويلِ في تفسيرِ السَّكِينة، فَرَوي عن عليّ بن أبى طالب أنَّه قال: "هي ريحٌ هفافة لهَا وجهٌ كَوَجه الإنسَان، ورويَ عنّه أنّها: ريحٌ حجوج ولهَا رأسَان. وقالَ مُجَاهد: السَّكينةُ لهَا رأس الهرِّ وجنَاحان وذنبٌ كَذنبِ الهرّ. وعن ابنِ عبّاس والرّبيع: هي دابةٌ مثلَ الهرّ، لعينيها شعاعٌ فَإذا التقَى الجَمعان أخرَجت يدَها فَنظرتْ إليهم فَيهزم ذلكَ الجيشُ من الرّعب. وعن ابنِ عبّاس والسّديّ: هي طستٌ من ذَهب من الجنّة يغسلُ فيها قلوبُ الأنبياء. وعن أبي مَالك: طستٌ من ذَهب ألقى موسَى فيه التوراةَ والألواحَ والعَصَا، وعن وَهب: السَّكينة: روح من اللهِ تتكلمُ إذا اختلَفوا في شَيء بيّنَ لَهم ما يُريدون، وعن الضّحَّاك: السَّكينة: الرّحمة، وعن عطَاء: السَّكينة: ما تعرفونَ من الآياتِ فَتستكينونَ إليها، وهذ اختيارُ الطبريّ. وتنزلُ السّكينةُ لسماعِ القرآنِ يدلُّ على خلافِ قول السُّديّ أنّها طستٌ من ذَهَب، ويشهدُ لِصحةِ قولِ مَن قال: إنّها روحٌ أو شَيء فيه روح، والله أعلم". ابن بطَّال، شرح صَحيح البخارِي (٢٤٩/١٠).

(6) [الفرقان: ٦٣].

(7) انظر: ابن منظور، لسان العرب (٦٣٥/١١).

(8) الجرجَاني، التعريفات (١٢٠/١).

(9) أخرجه الطبرانيُّ في "معجمه" من حديثِ ابنِ مَسعود موقوفًا (١٨٥/٩)، ح٨٩١١. وقالَ الهيثميُّ في "المجمع":"إسناده جيّد".قلتُ: بل إسنادُ الحديثِ صحيحٌ ورجاله ثقات. وللحديثِ

شاهدٌ عن أبي هريرةَ في "معجم الإسماعيلي"(٤٣٣/١)، لكنَّ الحاكمَ قالَ إنَّه صحيحُ الإسنادِ شاذّ المَتن كما نقلَ عنه المناويُّ في "فيض القدير"(١٤١/٤)، وقالَ الألبانيُّ في "ضعيف الجامع الصغير وزيادته"(ص:٤٩١):"ضعيفٌ جدًّا".وراجع لمزيدِ كلامٍ فيه: علل الدارقطنيّ (١٦٢/١٠)، ١٩٥٥.

(10) انظر: ابن القيّم، مدَارج السالكين (٤٧٢/٢).
(11) ابن زنجَويه، الأموال (٥٠٩/٢)، ح ٨١٤.
(12) ابن القيّم، مدارج السالكين (٤٧٠/٢).
(13) انظر: المرجع السابق (٤٨١/٢- ٤٨٢).
(14) ابن القيّم، مدارج السّالكين (٤٨١/٢- ٤٨٢).
(15) المرجع السابق نفسه.
(16) انظر: ابن القيّم، إعلام المُوَقعين (٢٠١/٤).
(17) [الفتح: ٢٦].
(18) انظر: ابن القيّم، إعلام الموقعين (٢٠١/٤-٢٠٢).
(19) أخرجه البخاريُّ في "صحيحه" من حديثِ أبي هريرة (١٩/١)، ح ٥٠.
(20) انظر: ابن القيّم، مرجع سبق ذكره (٢٠٣/٤-٢٠٤).
(21) [البقرة : ٢٣٥].
(22) انظر: ابن القيّم، مدارج السَّالكين (٦٥/٢-٦٦).
(23) المرجع السابق.
(24) أبو نُعيم الأصبهانِي، حلية الأولياء (٣٢٣/٤).
(25) المرجع السابق (٣٢٨/٤).
(26) الإمام أحمد، الزُّهد (٢٣٠/١).
(27) انظر: ابن القيّم، إعلام الموقعين (٢٠٤/٤).
(28) ديوان الشافعي (ص:١٧).
(29) [المجادلة :١١].
(30) سيّد قطب، في ظِلال القرآن (٣٥١٢/٦).
(31) أخرجه أحمدُ في "مسنده" من حديثِ أبي الدَّردَاء (٤٥/٣٦)، ٢١٧١٤، وهو حديثٌ حسنٌ لِغيره، وهذا إسنادٌ ضَعيف، وقَيس بن كَثير، وقيل: كَثير بن قَيس -وهو قولُ الأَكثرين- ضَعيف، ثمَّ إنَّ عاصمَ بن رَجاء لَمْ يَسمعه من قَيس، فهو منقطعٌ؛ إذ بينَهما داودُ بن جميل.
(32) أخرجه مسلِم في "صحيحه" من حديثِ عمَر (٥٥٩/١)، ح ٨١٧.
(33) سيّد قطب، في ظلالِ القرآن (١٤٧٥/٣).
(34) صحيح مسلم (٢٠٧٤/٤)، ٢٦٩٩.
(35) شرح سُنَن أبي داود (١٣٦/٨).
(36) أخرجه الترمذيُّ في "سننه" من حديثِ أبي هريرة (٥٩١/٤)، ح ٢٣٨٢، وقال عنه: "حديثٌ حسنٌ غَريب"، أقولُ: وهذا الإسنادُ صحيحٌ ورجاله ثقات، مع كلامِ البعضِ في الوليدِ بن أبي الوَليد أبو عثمَان المَدَنِيّ، فقد قالَ فيه ابنُ حجرَ (ص:٥٨٤)، ٧٤٦٤: "ليّن الحديث"، ولعلّه

قالَ فيه هذا لقلّةِ روايتِه، كما وصفَ ابنُ حبّانَ في "الثقات" (٥٥٢/٧)، وقد وثّقه أئمّة معتبرونَ كابنِ معينَ، وأبي زُرعةَ. ينظر: الجرح والتعديل (١٩/٩)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٠٧/٣١)، ٦٧٤٥.

(37) أخرجه النسائيُّ في "الكبرى" من حديثِ أبي سعيد (٢١٤٣/٤)، ح٣٤٥٠، وإسنادُه صحيحٌ موقوفًا.

(38) أخرجه ابنُ حبّانَ في "صحيحه" من حديثِ البَراء بن عَازب،(٤٦/٣)،٧٦٩، وإسنادُ الحديثِ صحيح.

(39) أخرجه البخاري في "صحِيحه" من حديث أسيد (١٩٠/٦)، ح ٥٠١٨.

(40) انظر: ابن بطّال، شَرح صَحيح البخاري (٢٥٤/١٠).

(41)[الإسراء: ٨٢، ٨٣].

(42) أخرجه البخاريُّ في "صحيحه" من حديث أبي هريرة (١٢٧/٤)، ح ٣٣٠١.

(43) انظر: المنَاوي، فَيض القَدِير (١٤١/٤).

(44) [الفرقان: ٦٣].

(45) [الإسرَاءِ: ٣٧].

(46) أخرجه الترمذيُّ في "سننِه" من حديثِ ابنِ مَسعود (٦٥٤/٤)، ح٢٤٨٨، وقالَ عنه: "هذَا حديثٌ حسنٌ غرِيبٌ"، معَ أنَّ في إسناده عبد الله بن عمرو الأَودِيّ، مجهول، ولم يروِ له الترمذيُّ غيرَ هذا الحديث، ينظر: تهذيب الكمال (٣٧٣/١٥)، وقالَ د. بشّار معروف تعليقًا: "إنَّ المصنِّفَ -يعني الترمذيّ- لا يُضعّف كثيرًا بسبب الجهالة"، يراجع: الجامع الكبير (٢٦٦/٤).

(47) انظر: ابن كثير، تفسيره (١٢١/٦-١٢٢).

(48) المرجع السابق.

(49) أخرجه مسلم في "صحيحِه" من حديثِ ابنِ مَسعُود (١/ ٩٣)، ح ٩١.

(50) [الرعد: ٢٨].

(51) أخرجه أبو داود في "سننه" من حديث حُذيفةَ بن اليَمَان (٤٨٥/٢)، ح١٣١٩. وإسناده ضعيفٌ؛ لأنَّ فيه محمد بن عبد الله الدُّؤلي مجهول، لم يروِ عنه غير عكرمةَ بن عمّار، ولم أجد أحدًا وثّقه، وقد قالَ فيه ابنُ حجرَ في "التقريب"(ص: ٤٨٩)، ٦٠٤٢: "مقبول"، وينظر: تهذيب التهذيب (٢٧١/٩).

(52) أخرجه مسلم في "صحيحه" من حديثِ أبِي هُرَيرة (٤٢١/١)، ح ٦٠٢.

(53) انظر: ابن عبد البرّ، الاستذكار (٣٨١/١-٣٨٢).

(54) انظر: الزُّرقَانِي، شرحه على الموطّأ (٢٦٩/١).

(55) أخرجه البخاري في "صحيحه" من حديث أبي قتادة (٨/٢)، ح ٩٠٩.

(56) ابن المُلقّن، التوضيح لِشرحِ الجامعِ الصَّحِيح (٤٩٠/٧).

(57) [المؤمنون: ١-٢].

(58) انظر: ابن كثير، تفسيره (٤٥٩/٥-٤٦٠).

(59) الطبري، جامع البيان (٦٩٤/١٩).

(60) أخرجه أحمدُ في "المسند" (٣٠٥/١٩)، ١٢٢٩٣، وإسناده حسنٌ لأجلِ "سلام بن سليمَان المُزني، أبو المنذِر القَارىء النّحوي البصريّ نزيلُ الكوفة، صدوقٌ يَهِم". كما قالَ ابنُ حجرَ في "تقريب التهذيب" (ص: ٢٦١)٢٧٠٥، وراجع تعليق محقّقي مسند أحمد.
(61) الطبري، مرجع سبق ذكره.
(62) أخرجه مسلم في "صحيحِه" من حديث أبي مالك الأشعري (٢٠٣/١)، ح٢٢٣.
(63) القاضي عِياض، إكمال المُعلِم شَرح صَحيح مسلِم (٥/٢).
(64) أخرجه أحمدُ من حديثِ أمِّ سَلمةَ، (٨٤/٤٤)، ٢٦٤٨٣، وقالَ محقّقو "المسند": "حديثٌ صحيحٌ لِغَيره، وهذا إسنادٌ ضعيفٌ لانقطاعه. قتادةُ لم يسمَعه من سفينة".
(65) أخرجه أحمدُ في "المسند" (٢٠٥/٢٣)، ح ١٤٩٤٦ وَإسناده صحيحٌ على شرطِ مسلم.
(66) أخرجه البخاريُّ في صحيحه (١٦٤/٢) ح ١٦٧١.
(67) ابن بطَّال، شرح صحيح البخاري (٣٤٩/٤-٣٥٠).
(68) المرجع السابق.
(69) [البقرة: ١٩٧].
(70) [المنافِقون: ٨].
(71) انظر: محمّد الحَمد، أثر الحجِّ في اكتسَابِ العِزَّة (١/١-٢).
(72) أخرجه الطبرانيُّ في "معجمه" من حديث الحَسن (٩٠/٣)، ح ٢٧٥٦. والإسنادُ ضعيفٌ لجهالةِ إسحاق بن بُزرج.
(73) أخرجه أحمدُ في "مسنَده" من حديثِ البَرَاء (٦٢٠/٣٠)، ح ١٨٦٨٤. وإسناده صحيحٌ على شرطِ الشيخين، كما قالَ محققو المسند.
(74) [الفتح: ٢٦].
(75) [الأحزاب: ٩-١١].
(76) أخرجه أبو عوَانَة في "مستخرجِه" من حديثِ حُذيفة (٣٢٠/٤)، ح ٦٨٤٢. ورواه مسلم في "الصّحيح" (٣/ ١٤١٤)، ١٧٨٨، واللفظُ للأول.
(77) [الأنفال: ٤٥].
(78) انظر: ابن كثير، تفسيره (٧٠/٤).
(79) أخرجه أبو داود في "سننه" من حديث أنس (٤٢/٣)، ح ٢٦٣٢. وإسناده صحيح.
(80) أخرجه البخاري في "صحيحه" من حديثِ عبدِ الله بن أبي أَوْفَى (٥١/٤)، ح٢٩٦٥.
(81) أخرجَه أحمدُ في "مسندِه" من حديثِ أبي موسى (٣٨٩/٧)، ح ١٩٦١٢. إسناده ضعيفٌ لِضعفِ لَيث- وهو ابن أبي سُلَيم- وباقي رجاله ثقاتٌ رجالُ الشيخين.
(82) أخرجه البخاريّ في "صحِيحه" من حديثِ أبِي سَعِيد الخُدْرِي (٨٦/٢)، ح ١٣١٦.
(83) أخرجه البخاريّ في "صحيحه" من حديثِ أبِي هُرَيرة (٨٦/٢)، ح ١٣١٥.
(84) أخرجه أبو بَكر بن أبي شَيبة في "مصنّفه" من حديثٍ لأبي موسى (٢٨١/٣)، ١١٣٧٧. وإسناده ضعيفٌ لضعفِ ليثِ بن أبي سُلَيم.
(85) انظر: العَينِي، نخب الأفكَار (٢٣٢/٧-٢٣٣).
(86) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (٢٦٨/١).

(87) قيل إنّه النّبي شمْعُون. انظر: ابن كثير، تفسيره (٦٦٧/١).
(88) [البقرة: ٢٤٨].
(89) انظر: سيد قطب، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة، وأبو زهرة، زهرة التفاسير (٨٩٦/٢).
(91) اللالكَائِي، شَرح أصولِ اعتقادِ أهلِ السّنة (٧/١٠).
(92) [الفتح: ٤].
(93) انظر: ابن كَثير، تَفسِيره (٣٢٨/٧).
(94) جزءٌ من حديثٍ طويلٍ رواه البخاريُّ في "الصحيح" (١٩٣/٣)، ٢٧٣١.
(95) [الإسراء :٨٢].
(96) انظر: ابن كثير، تفسيره (١١٢/٥).
(97) الموضع الأول: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة الآية: ٢٤٨]. الموضع الثَّاني: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].الموضع الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠]. الموضع الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ [الفتح:٤]. الموضع الخامِس: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].الموضع السَّادس: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] .
(98) ابن القيّم، مدَارج السَّالكين (٤٧١/٢).

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
١. أثر الحَجِّ في اكتسابِ العِزَّة، للشيخ محمّد بن إبراهِيم الحَمد.
٢. الاستذكار، لأبِي عمَر يوسف بن عبدِ اللهِ بن محمّد بن عبدِ البَرّ بن عاصم النّمرِي القُرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ – ٢٠٠٠، عدد الأجزاء: ٩.
٣. إعلام المُوَقعِين عن ربِّ العَالمين، لمحمّد بن أَبي بَكر بن أيّوب بن سَعد شمس الدّين ابن قيّم الجوزِيّة (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق : طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، الطبعة : ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
٤. إكمال المُعلِم شَرح صحيحِ مسلِم، لأبي الفَضل القَاضِي عِياض اليَحصُبيّ، (المتوفى:٥٤٤ هـ)، عدد الأجزاء ٨.
٥. الإحسان في تقريبِ صحيحِ ابنِ حبّان، محمّد بن حبّان بن أحمَد بن حبّان بن مَعاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدّارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٦.التعريفات، لِعليّ بن محمّد بن علي الجرجَانِي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٥، عدد الأجزاء : ١.
٧.تفسير ابن كثير، المعروف بِـ "تفسير القرآنِ العظيم"، لأبِي الفِداء إسمَاعيل بن عمَر ابن كَثير القُرشِيّ البَصرِيّ ثمّ الدّمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.
٨.تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٩.التوضِيح لِشرحِ الجَامع الصحيح، لابنِ المُلَقِّن سِراج الدّين أبو حَفص عمر بن عليّ ابن أحمَد الشافِعيّ المِصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، المحقّق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، عدد الأجزاء: ٣٦ (٣٣ و ٣ أجزاء للفهارس).
١٠.الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣م، عدد الأجزاء: ٩.
١١.الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١هـ- ١٩٥٢م.
١٢.جامِع البَيان في تأويلِ القرآن، محمد بن جَرير بن يَزيد بن كَثير بن غَالب الآمِلِي، أبو جَعفر الطبريّ (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٤.
١٣.حِلية الأَولياء، لِأبي نُعيم أحمَد بن عبدِ الله بن أحمَد بن إسحاقَ بن موسى بن مهران الأصبهانِيّ (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها دار الكتاب العربي– بيروت، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ودار الكتب العلمية– بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، عدد الأجزاء: ١٠.
١٤.ديوان الإمام الشافعي، أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (المتوفى: ٢٠٤هـ).[نسخة شبكة مشكاة الإسلامية].
١٥.الزُّهد، للإمام أحمَد بن حَنبل ﷺ، (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقّق: يَحيى بن محمد سوس، الناشر: دار ابن رجب، الطبعة: الثانية، ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١
١٦.زهرَة التفاسير، لمحمَّد بن أحمَد بن مصطَفى بن أحمَد المعروف بأبي زهرَة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي، عدد الأجزاء: ١٠.
١٧.سنن أبي دَاود، لِسليمان بن الأَشعث بن شدّاد بن عَمرو الأَزدِيّ، أبي داود السّجستاني (المتوفى: ٢٧٥)، بيت الأفكار الدّولية– الرياض– الأردن، ط: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
١٨.سنن الترمِذي، لمحمّد بن عِيسى أبو عيسى الترمِذيّ السّلميّ (المتوفى: ٢٧٩)، تحقيق: أحمَد محمّد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

١٩.سنن النّسائي، لأبِي عبد الرّحمن أحمد بن شُعَيب بن عليّ الخراسَانِي النَّسائِي (المتوفى: ٣٠٣)، تحقيق: عبد الفتّاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، ط:٢، ١٤٠٦هـ.
٢٠.سنن النّسائي الكبرَى، لأحمَد بن شُعَيب أبو عبدِ الرّحمن النّسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، تحقيق: عبد الغَفّار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.
٢١.شرح أصولِ اعتقادِ أهلِ السّنةِ والجَماعة من الكتابِ والسُّنة وإجماعِ الصحابة، لِهبة اللهِ بن الحَسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، الناشر: دار طيبة- الرياض، ١٤٠٢، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، عدد الأجزاء : ٤.
٢٢.شرح الزّرقَانِيّ على موطّأ الإمام مَالك، لمحمّد بن عبدِ الباقي بن يوسف الزّرقَانِيّ المصرِي الأزهرِي، تحقيق: طَه عبد الرؤوف سَعد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٤.
٢٣.شرح صحيحِ البخاريّ، لأبِي الحَسن علي بن خلف بن عبدِ المَلك، المعروف بابن بطَّال، (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تَميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد- السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١٠.
٢٤.صحيح البخَاري، المسمّى "الجَامع المُسند الصّحيح المُختصر من أمورِ رسولِ اللهِ ﷺ وسُننه وأيّامه)، لمحمّد بن إسماعيلَ أبو عبد اللهِ البخارِيّ الجُعفي (المتوفى: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمّد النّاصر، دار طوق النّجاة- بيروت، ط:١، ١٤٢٢.
٢٥.صحيح مسلِم، المسمّى "المُسند الصحِيح المُختصر بنقلِ العَدْلِ عن العَدْلِ عن رسولِ اللهِ ﷺ، لأبِي الحَسن مسلِم بن الحجَّاج القُشَيري النّيسابوري (المتوفى:٢٦١)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٦.صَفوة التفَاسير، لمحمّد عليّ الصّابوني، الناشر: دار الصّابوني للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١.
٢٧.العلل الواردة في الأحاديث النبوية، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المجلدات من الأول، إلى الحادي عشر تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، الناشر: دار طيبة - الرياض. الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. والمجلدات من الثاني عشر، إلى الخامس عشر، علق عليه: محمد بن صالح بن محمد الدباسي، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام. الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.
٢٨.في ظلالِ القرآن، لِسيّد قُطب إبراهيم حسين الشاربِي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق- بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر- ١٤١٢هـ.
٢٩.فَيض القَدِير، شَرح الجَامع الصَّغير، لِزين الدّين محمّد المَدعو بِعبدِ الرّؤوف بن تاج العَارفين بن عليّ بن زَين العَابدين الحدادي ثمّ المنَاوي القاهِري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى- مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦.
٣٠. لسَان العَرب، لمحمّد بن مُكرم بن عليّ، أبو الفَضل، جمَال الدّين ابن منظور الأنصارِي (المتوفى: ٧١١)، دار صادر- بيروت، ط:٣، ١٤١٤هـ.
٣١.مَدارج السّالكين بينَ منازل إيّاك نَعبد وإيّاك نَستعين، لمحمّد بن أبي بَكر بن أيّوب بن سَعد

شمس الدّين ابن قيّم الجوزيّة (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٢.

٣٢.مسنَد أحمَد، لأبي عبدِ اللهِ أحمَد بن محمّد بن حَنبل بن هَلال بن أَسد الشّيبانِي (المتوفى:٢٤١)، حقّقه: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط:٢، ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.

٣٣.المُصنّف في الأحاديثِ والآثار، لأبِي بَكر بن أبي شَيْبَة، عبد الله بن محمّد بن إبراهيم بن عثمَان بن خَواستِي العَبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩، عدد الأجزاء: ٧.

٣٤.المعجَم الكَبير، لسليمانَ بن أحمَد بن أيّوب أبو القَاسِم الطَبرَانِيّ، مكتبة العلوم والحكم– الموصل، الطبعة الثانية: ١٤٠٤– ١٩٨٣م، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي.

٣٥.المعجم في أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي أبو بكر [٢٧٧-٣٧١]، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ.

٣٦.نخب الأَفكار في تَنقيحِ مَباني الأَخبار في شرحِ مَعاني الآثَار، لأبي محمد محمود بن أحمَد بن موسَى بن أحمَد بن حسين الغيتَابِي الحَنفي بَدر الدّين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، المحقق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية– قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، عدد الأجزاء: ١٩ (١٦ و ٣ أجزاء فهارس).